بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين.. الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الإسلام، وكفى بها من نعمة، فبعث لنا سيد المرسلين وخاتمهم نبينا محمد بن عبد الله ﷺ، فأخرجنا من الظلمات إلى النور بإذن ربه، فكنا بذلك أسعد الناس وأكملهم، إذ سرنا على هدي كتاب ربنا - سبحانه وتعالى - و سنة رسوله ﷺ، فهما عماد الإسلام ومنابعه، وأصول التشريع وروافده.

والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد، خير الخلق وأكرمهم، أدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، نسير على هذا النور إلى كل خير وصلاح، ونعرف شرع الله - تعالى - فنمضي على هداه.. فجزاه الله - تعالى - عنا خير الجزاء.. وجعلنا الله - تعالى - من أتباعه إلى يوم أن نلقاه، وجعلنا من رفقائه بعد أن نلقاه - صلاة دائمة، نرجو بها الأجر العظيم من الله - تعالى -.

وبعد..

فإن علم أصول الفقه من علوم هذه الشريعة الكاملة، وبه يتوصل إلى معرفة الأحكام الشرعية، التي هي الغاية المطلوبة، والثمرة المرجوة، وهو بالنسبة للقرآن والسنة، كالدلاء بالنسبة للآبار، فلا يستطاع استنباط الماء من البئر إلا بالدلو، كما لا

يستطاع استنباط الحكم من القرآن والسنة إلا بعلم أصول الفقه.

ولذلك كان لهذا العلم أهمية بالغة.. فبه تنضبط الاجتهادات، وتنحصر الخلافيات، حيث ينظر كل مجتهد إلى دليل غيره، ويتبين به طريق علمه، فيتوصل إلى معرفة الحق الواضح.

ولا شك أن قواعد هذا العلم تعتمد اعتماداً كلياً على النظر الصحيح، والفكر النير، والعقل المهتدي بالشرع، لتتقرر وفق الأصول العقلية المتفق عليها..

ومن هنا، كان للميزان الذي خلقه الله - سبحانه وتعالى - الدور الكبير في وضع قواعد هذا العلم، وهذا الميزان هو الذي نسميه العقل.

ولا يزال كثير من الباحثين يذكر كلمة الإمام الغزالي في كلامه عن أهمية أصول الفقه، ومن ثم يصدرونها في أبحاثهم، حيث ينقلون قوله: «وأشرف العلوم ما ازدوج فيه العقل والسمع، واصطحب فيه الرأي والشرع، وعلم الفقه وأصوله من هذا القبيل، فإنه يأخذُ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل، فلا هو تصرف بمحض العقول، بحيث لا يتلقاه الشرع بالقبول، ولا هو مبني على محض التقليد، الذي لا يشهد له العقل بالتأييد والتسديد».

وإذا كان الباحثون يستدلون بقول الغزالي هذا، فهنا - في تقديم كتاب المستصفى محققاً ومفهرساً - أحق أن يتبع.

وكتاب المستصفى للإمام محمد بن محمد بن الغزالي، من

أركان علم أصول الفقه، ألفه مؤلفه على طريقة المتكلمين، أو بعبارة أخرى، على طريقة الشافعية، حيث يؤصلون القاعدة ويقيمون عليها الدليل، ولا يذكرون الفروع التي ارتبطت بهذه القاعدة إلا يسيراً، وكان الأحناف في مقابلهم، حيث وضعوا أصول فقههم اعتماداً على فروع مذهبهم، فأكثروا من ذكر الفروع لتتضح القاعدة من خلالها.

ولما رأيت أهمية كتاب المستصفى، ورأيت أنه لم يحقق التحقيق العلمي الذي ينتظره كل شغوف بهذا العلم - فقد كانت طباعته قبل ما يقرب من مائة عام، بالإمكانات المتاحة آنذاك - عقدت العزم أن أقوم بهذه المهمة، واستعنت بالله - تعالى -، يحدوني الأمل أن يكون هذا السفر العظيم قريب المنال لطلاب العلم، مريحاً للقارىء بعد تنظيمه التنظيم الجيد، فلا شك أن إخراج أي كتاب إخراجاً جيداً يساعد على فهم ما فيه، وضبط معانيه، ومعرفة رأي صاحبه ومراميه.

وها أنا ذا أقدم كتاب «المستصفى» لطلاب علم أصول الفقه، أرجو به الأجر من الله - تعالى -، وأن ينفع الله به كل من طالعه، ويكرمني الله - تعالى - بقبول دعوة كل من دعى، فإني أرجو ذلك من كل من يستفيد من هذا الكتاب وتحقيقه.

وسأتكلم - موجزاً - عن حياة الغزالي، وعن كتابه المستصفى، وماذا قدمت من خلال تحقيقه..

والله - أسأل - أن يجعل عملي لوجهه الكريم، وأن يغفر لي

خطيئتي يوم الدين، وأن يحيينا على الإيمان به وحده لا شريك له، وأن يميتنا عليه، إنه سميع بصير..

وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين..

حمزة زهير حافظ
المدينة المنورة
في
اليوم الأول من شهر
رمضان المبارك
عام ١٤١٣هـ

سيرة

الإمام

الغزالي

(١)
اسمه ونسبه

هو الشيخ الإمام محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي(١).

أبو حامد الغزّالي..

حجة الإسلام.. زين الدين.

والطوسي نسبة إلى مدينة طوس(٢).

١ـ للغزالي ترجمة في: طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ١٩١/٦، وطبقات الشافعية للأسنوي ٢٤٢/٢، وطبقات الشافعية لابن هداية الله ص١٩٢، شذرات الذهب ١٠/٤، وفيات الأعيان ٢١٦/٤، سير أعلام النبلاء ٣٢٢/١٩، مفتاح السعادة ومصباح السيادة ٣٣٢/٢، اللباب ٣٧٩/٢، معجم المؤلفين ٢٦٦/١١، الوفيات ص٢٦٦، العبر ٣٨٧/٢، المنتظم ١٦٨/٩، نوابغ الفكر الإسلامي لأنور الجندي ص٢٧١، البداية والنهاية لابن كثير ١٧٣/١٢، المنتخب من السياق (الحلقة الأولى من تاريخ نيسابور) ص٨٣.

٢ـ مدينة من مدن إقليم خراسان، بقرب نيسابور، مشهورة، ذات قرى ومياه وأشجار، والمدينة تشتمل على محلتين. يقال لأحدهما الطابران والأخرى نوقان اهـ. هكذا عرفها القزويني ـ ت ٦٨٢ ـ في كتابه آثار البلاد وأخبار العباد ص٤١١. وبقريب من هذا التعريف ذكرت في تقويم البلدان ص٤٤٣، والروض المعطار ص٣٩٨، ومعجم البلدان ٤٩/٤.. أما في كتاب "بلدان الخلافة الشرقية" لمؤلفه "كي لسترنج" ـ ت ١٩٣٣م ـ فقد ذكر مدينة طوس عندما تكلم عن مدينة المشهد ـ وهي مدينة معروفة الآن في إيران ـ فقال لسترنج: وعلى بضعة أميال من شمال المشهد أطلال طوس المدينة القديمة،

والغزّالي نسبة إلى غزل الصوف(١).

وكانت طوس في المائة الرابعة ـ العصر الذي عاش فيه الغزالي ـ المدينة الثانية في ربع نيسابور ـ من أرباع خراسان ـ وتتألف من المدينتين التوأمين: الطابران، ونوقان. وسيتبين موقعها الجغرافي في وقتنا الحاضر من الخارطة التي ترفق بهذا الكتاب. ومما قاله كي سترنج: والظاهر أن طوس لم تقم لها قائمة بعد نهب المغول لها سنة ٦١٧هـ، وأهل ناحية طوس ـ على ما ذكر المستوفي، وهو مؤرخ في المائة الثامنة ـ من أحسن الناس أخلاقاً وألطفهم مع الغرباء.

١ـ كان والد أبي حامد الغزالي يغزل الصوف ثم يبيعه في دكانه في طوس فنسب ابنه محمد إلى صنعة أبيه.. والأصل أن يقال في النسبة إلى الغزل: الغزّال ـ بدون ياء ـ إلا أن الذهبي في العبر ٣٨٨/٢، وابن خلكان في وفيات الأعيان ٩٨/١، قالا: عادة أهل خوارزم وخراسان يقولون: القصّاري بدلاً من القصار والحبّاري بدلاً من الحبار، والشّحامي بدلا من الشحام. وقال صاحب تحفة الإرشاد نقلاً عن الإمام النووي في دقائق الروضة: "التشديد في الغزّالي هو المعروف الذي ذكره ابن الأثير". نقل كلام صاحب تحفة الإرشاد الزبيدي في إتحاف السادة ١٨/١ ثم عقب عليه: بأنه هو المعتمد ـ الآن ـ عند المتأخرين من أئمة التاريخ والأنساب. اهـ. ثم أورد أبياتاً من الشعر أنشدها شيخه عبد الخالق بن أبي بكر الزجاجي بزبيد لأحد شعراء اليمن:

ما للعواذل في هواك ومالي ... روحي فداك يا حبيب ومالي
غزال طرفك إن رنا أحيا به ... وكذلك الإحياء للغزّالي

ولكن، هل "للغزالي" بدون تشديد ـ وهو ما يدور على الألسنة في أيامنا هذه ـ وجه؟

يقول الزبيدي: في المصباح للفيومي ما يؤيد التخفيف، وأن غزالة قرية بطوس، وإليها نسب الإمام أبو حامد، قال: أخبرني بذلك الشيخ مجد الدين بن محمد بن أبي الطاهر شروان شاه بن أبي الفضائل فخراور بن عبيد الله بن ست النساء بنت أبي حامد الغزالي ببغداد سنة عشر وسبعمائة، وقال لي أخطأ الناس في تثقيل جدنا، وإنما

(٢)
مولده وصباه

ولد محمد بن محمد ... الغزالي في مدينة طوس، في نصفها الذي يعرف بـ «الطابران» -، ولها نصف آخر هو «نوقان»(١) - سنة أربعمائة وخمسين من الهجرة النبوية - على صاحبها أفضل الصلاة والسلام -.

من رجل كان يغزل الصوف ويبيعه في دكانه، وينفق على عياله، مما يرزقه الله من مهنته وعمله..

هو مخفف.. اهـ. وقال الشهاب الخفاجي في آخر شرح الشفا: "ويقال إنه منسوب إلى غزالة ابنة كعب الأحبار" اهـ. وهذا إن صح فلا محيد عنه. راجع إتحاف السادة ١٨/١، وهامش الطبقات الكبرى لابن السبكي ١٩١/٦، والمصباح المنير ص٤٤٧. ومما يلاحظ ـ الآن ـ أنه لا أحد ينسب الإمام أبا حامد إلا بالتخفيف.. وهو إما تأثر بالرأي الأخير، أو مصيرٌ إلى التخفيف في النطق.. فتركوا التشديد في "الغزّالي". والله أعلم.

١ـ كانت نوقان في المائة الثالثة ـ على ما ذكر اليعقوبي ـ ٢٧٨هـ ـ أكبر نصفي طوس، إلا أن الطابران قد جاوزتها كبراً في المائة التالية لها، وبقيت المدينة الكبرى حتى أيام ياقوت، حين أخربت جحافل المغول طوس.. وكان الحصن المجاور للطابران بناء فخماً عظيماً يرى من بعيد، على قول المقدسي ـ ٣٧٥هـ ـ وأسواق هذا النصف من المدينة عامرة، وجامعها حسن البناء بديع التزويق. راجع بلدان الخلافة الشرقية ص٤٣٠.

وكان هذا الرجل يحب الصالحين والعلماء، وكان يتمنى أن يرزقه الله أولاداً فيعلمهم الفقه، فلما حضرته الوفاة أوصى بمحمد وبأخيه أحمد(١) إلى صديق له متصوف من أهل الخير، وقال: «إن لي لتأسفاً عظيماً على تعلم الخط، واشتهي استدراك ما فاتني في ولديَّ هذين»، فأقام بهما، وعلمهما الخط، وأدبهما، إلى أن فني ما ترك لهما أبوهما.

وتعذر على الصوفي القيام بقوتهما، فقال لهما: إعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل لا مال لي فأواسيكما به، وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة، فإنكما من طلبة العلم، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما.

ففعلا ذلك، وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما.

وكان الغزالي يحكي هذا ويقول: طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله.

وقرأ طرفاً من الفقه في بلده على أحمد بن محمد

١ـ أحمد بن محمد بن محمد الغزالي، أبو الفتوح، واعظ، صوفي، عالم، تفقه ثم غلب عليه الوعظ، وكان قد درس مكان أبي حامد في النظامية لما تزهد وتركها، اختصر "الإحياء" الذي صنفه أخوه في مجلد، سماه "لباب الإحياء"، وله تصنيف آخر سماه "الذخيرة إلى علم البصيرة" مات سنة ٥٢٠هـ. راجع ترجمته في: طبقات ابن السبكي ٦٠/٦، ووفيات الأعيان ٩٧/١.

الراذكاني[1].

وبذلك يكون قد تأسس في بلده، وأخذ ببداية الطريق إلى العلم الذي سيبرز فيه، كواحد من أكبر وأشهر علماء ذلك العصر.

١ـ نسبة إلى "رَاذَكان" قرية من قرى طوس.. قال ابن السبكي في طبقاته ٩١/٤: وهو أحد أشياخ الغزالي في الفقه، تفقه عليه قبل رحلته إلى إمام الحرمين. وراجع ـ أيضاً ـ اللباب ٥/٢.

(٣)
رحلاته في طلب العلم والتعليم

إلى جرجان(١):

بعد أن درس وتعلم في بلده، كان كغيره من أهل ذلك الزمان، حيث كانوا يرتحلون لطلب العلم والاطلاع على ما عند علماء البلاد الأخرى، فشد الرحال إلى جرجان.

وهناك التقى الإمام أبي نصر الإسماعيلي(٢)، وعلق عنه

١ـ مدينة في إقليم اتحد معها في الاسم، ويقع إقليم جرجان في جنوب شرق بحر قزوين ـ بحر الخرز قديماً ـ ويضم في الإغلب السهول العريضة والأودية التي يسقيها نهرا جرجان وأترك، وقد خرب هذا الإقليم في المائة السابعة على أيدي المغول، ثم دمرته حروب تيمور في ختام المائة الثامنة. وهذه المدينة تسمى ـ الآن ـ "من كركان" وجرجان جانبان، بينهما يجري نهر جرجان، فجرجان الجانب الشرقي، وبكر أباد الجانب الغربي، وسمى المقدسي الجانب الشرقي من جرجان "شهرستان"، وتبعد جرجان عن بحر قزوين مسيرة يوم. راجع: معجم البلدان ١١٩/٢، آثار البلاد وأخبار العباد ص٣٤٨، الروض المعطار ص١٦٠، مراصد الاطلاع ٣٢٣/١.

٢ـ محمد بن أحمد بن إسماعيل الإسماعيلي، كان عالماً رئيساً، رأس في حياة أبيه، وكان رئيس مدرسة جرجان، ورحل في صباه، فسمع أبا العباس الأصم، وديلم بن أحمد، وأبا بكر الشافعي، وأبا يعقوب البحيري، وابن رحيم الكوفي، وغيرهم، روى عنه حمزة السهمي، وقال في تاريخه: كان له جاه عظيم، وقبول عند الخاص والعام، وكان يعرف الحديث. اهـ. وهو من أصحاب أصحاب الأشعري. راجع: طبقات الشافعية الكبرى

التعليقة، وهو لم يبلغ العشرين بعد، ثم عاد بعد ذلك إلى طوس، ولا يسعفنا التاريخ فيبين لنا كم قضى في جرجان، ولكنه - على كل حال - قضى بعد عودته من جرجان ثلاث سنين في طوس.

وهنا واقعة طريفة، يذكرها المؤرخون عن الشيخ أسعد الميهني(١)، قال: سمعت الغزالي يقول: قطعت علينا الطريق، وأخذ العيارون - قطاع الطرق - جميع ما معي، ومضوا، فتبعتهم، فالتفت إليَّ رئيسهم وقال: ارجع وإلا هلكت.

فقلت له: أسألك بالذي ترجو السلامة منه، أن ترد عليَّ تعليقتي؛ فما هي بشيء تنتفعون به.

فقال لي: وما هي تعليقتك.

فقلت: كتب في تلك المخلاة، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها.

فضحك وقال: كيف تدعي أنك عرفت علمها، وقد أخذناها منك، فتجردت عن معرفتها، وبقيت بلا علم.

٩٢/٤، تبين كذب المفتري ص٢٣١، اللباب ٤٦/١.

١ـ أبو الفتح أسعد بن أبي نصر بن الفضل القرشي الميهني، نسبة إلى ميهنة، قرية من طوس، أحد شيوخ الشافعية في عصره، درَّس بالنظامية سنة ٥٠٧هـ ثم عزل بعد ست سنوات، ثم وليها سنة ٥١٧هـ تفقه على أبي المظفر السمعاني، كان مولده سنة ٤٦١هـ، ووفاته في ٥٢٧هـ. راجع ترجمته في: سير أعلام النبلاء ٦٣٣/١٩، وفيات الأعيان ٢٠٧/١، وطبقات الأسنوي ٤٢٤/٢.

ثم أمر بعض أصحابه، فسلم إليَّ المخلاة .

فقال الغزالي: هذا مستنطق أنطقه الله - تعالى -، يرشدني به في أمري، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنوات. حتى حفظت جميع ما علَّقْته، وصرت بحيث لو قطع عليَّ الطريق لم أتجرد من علمي(١).

في نيسابور(٢).

بعد ثلاث سنوات من رجعته إلى طوس، رحل الغزالي إلى

١ـ قال ابن السبكي في طبقاته: وقد روى هذه الحكاية عن الغزالي ـ أيضاً ـ الوزير نظام الملك، كما هو مذكور في ترجمة نظام الملك، من ذيل ابن السمعاني.

٢ـ مدينة من مدن خراسان، ذات فضائل حسنة وعمارة، وكانت من أحسن بلاد الله وأطيبها، خربها التتار عام ٦١٨هـ والعامة يسمونها "نشاوور" هكذا ورد ذكرها في آثار البلاد ص٤٧٣، ومعجم البلدان ٣٣١/٥، والروض المعطار ص٥٨٨، ومراصد الاطلاع ١٤١١/٣. وينقل لسترنج عن ابن حوقل ـ ٣٦٧هـ ـ قوله: ليس في خرسان مدينة أصح هواء، وأفسح فضاء، وأشد عمارة من نيسابور. وفي الفارسية الحديثة يلفظ اسمها "نيشابور" وهو مشتق من "نيوشاه بور" في الفارسية القديمة، ومعناه: "اشيء أو عمل أو موضع) سابور الطيب" وإنما سميت بذلك نسبة إلى الملك سابور الثاني الساسي الذي جدد بناءها في المائة الرابعة الميلادية، وفي صدر العهد الإسلامي كان يقال ـ أيضاً ـ لنيسابور "أبرشهر"، ومعناه: مدينة الغيم. وكان يلفظ اسمها في المائة السابعة "نشاوور". وزارها ابن بطوطة في المائة الثامنة فوجدها عامرة. راجع هذه المعلومات وغيرها في بلدان الخلافة الشرقية ص٤٢٤ وما بعدها.

نيسابور، حيث المدرسة النظامية، وحيث إمام الحرمين(١) رئيسها.

وهناك أكب على دراسة الفقه والأصول، والمنطق والكلام وغيرها. يقول ابن السبكي: «قدم الغزالي نيسابور، ولازم إمام الحرمين وجد، واجتهد، حتى برع في المذهب والخلاف والجدل

١ـ هو الإمام عبد الملك بن عبد الله بن يوسف.. الجويني النيسابوري. والجويني نسبة إلى جُوَيْن، ناحية من نواحي نيسابور، ولد بها والد إمام الحرمين الشيخ عبد الله بن يوسف، فأتت هذه النسبة لإمام الحرمين عن طريق الوراثة. ولد عبد الملك في سنة ٤١٩هـ، وتفقه على والده، وسمع منه الحديث ومن غيره، وقعد للتدريس بعد والده ولم يبلغ العشرين، ومكانته بين علماء الأمة مما لا ينكر، وكتب في علم الكلام، والأصول والفقه، فكان هو المقدم.. ومن تاريخه: أنه جاور بمكة أربع سنين، يدرس ويفتي، وكذلك أقام بالمدينة المنورة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ فلذلك سمي بـ "إمام الحرمين"، قال أبو سعيد الطبري القاضي ـ وقد قيل له إنه لقب إمام الحرمين ـ: بل هو إمام خراسان والعراق، لفضله وتقدمه في أنواع العلوم. له في أصول الفقه: البرهان ـ وهو مطبوع ـ، والورقات ـ كذلك ـ ومغيث الخلق في ترجيح القول الحق ـ مطبوع ـ، والتلخيص في الأصول ـ محقق في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ـ، وغياث الأمم في التياث الظلم، وله عدد من كتب الفقه، لم اطلع على شيء منها مطبوع، ولكن أخبرت بوجود نسخة خطية من كتابه "نهاية المطلب في دراية المذهب" في جامعة أم القرى بمكة المكرمة، وله في الجدل "الكافية"، وفي أصول الدين الإرشاد إلى قواطع الأدلة ـ مطبوع ـ، والشامل في أصول الدين ـ مطبوع ـ، وكذلك العقيدة النظامية. وله مصنفات أخرى، توفي إمام الحرمين عام ٤٧٨هـ. راجع ترجمته في: الطبقات الكبرى للسبكي ١٦٥/٥، واللباب ٣١٥/١، سير أعلام النبلاء ٤٦٨/٨، وفيات الأعيان ١٦٧/٣، ومقدمة تحقيق كتاب المنخول ص١٣.

والأصلين والمنطق والفلسفة، وأحكم كل ذلك».

تربى الغزالي على يد الجويني، ونهل من علمه، وأصبح التلميذ النجيب، فأعجب به شيخه، وأظهر التبجح به، فعاش الغزالي ردحاً من الزمن مع إمام الحرمين، وهو من هو في العلم، وقضى أبو حامد أياماً حافلة بالتعلم والتعليم، حتى فاز بشهادة إمام الحرمين بأنه بحر مغدق. فقد كان إمام الحرمين يقول: «الغزالي بحر

مغرق» (١)، وإلكيا (٢) أسد مخرق، والخوافي (٣) نار تُحرق»، كما

١ـ في بعض النقول: مغلق، واخترت "مغرق" مراعاة للسجع، وإن كان "مغلق" في المعنى أبلغ.

٢ـ هو علي بن محمد الطبري، المعروف بـ "إلكيا الهراسي"، وإليكا بهمزة مكسورة ولام ساكنة ثم كاف مكسورة، بعدها ياء بنقطتين من تحت ـ ومعناه ـ بلغة الفرس ـ: الكبير القدر. أما الهراسي ـ براء مشددة وسين مهملتين ـ فقد قال الأسنوي: لا أعلم نسبه إلى أي شيء اهـ. وكنيته أبو الحسن، ولقبه: عماد الدين. تفقه ببلده ثم رحل إلى نيسابور قاصداً إمام الحرمين، وعمر الكيا ثماني عشرة سنة، ولازمه حتى برع في الفقه والأصول والخلاف، وهو من أكبر تلامذة الإمام، وكان إماماً نظاراً قوي البحث، تولى النظامية في بغداد سنة ٤٩٣هـ، واستمر مدرساً بها إلى أن توفي في أول المحرم سنة ٥٠٤هـ، وعمره أربع وخمسون عاماً، وكان جهوري الصوت، حسن الوجه، ومن كلامه وبيانه واعتزازه بالحديث الشريف قوله: إذا جالت فرسان الأحاديث في ميادين الكفاح، طارت رؤوس المقاييس في مهاب الرياح" أما قول إمام الحرمين: "إلكيا أسد مخرق" فقد يكون المراد به أنه لا يقع في أمر إلا خرج منه، من قولهم: رجل مخراق. كذا في لسان العرب ٧٧/١٠، أو من أخرقه، أدهشه، فهو مدهش. كذا في ترتيب القاموس للزاوي ٤٥/٢، وفي سير أعلام النبلاء: إلكيا أسد مطرق. وله كتب، منها: شفاء المسترشدين في مباحث المجتهدين ـ ولا أعلم هل هو مطبوع أو مخطوط أو مفقود ؟ـ، وأحكام القرآن، وهو مطبوع في أربعة أجزاء بدار الكتب العلمية ـ بيروت، وله تعليق في الأصول، ولوامع الدلائل في زوايا المسائل، ونقد مفردات الإمام أحمد. راجع ترجمته في: شذرات الذهب ٨/٤، هدية العارفين ٦٩٤/١، وسير أعلام النبلاء ٣٥٠/١٩، طبقات الشافعية للسبكي ٢٣٠/٢، الفتح المبين ٧/٢.

٣ـ أحمد بن محمد بن المظفر، ونسبته إلى "خواف" ـ بفتح الخاء المعجمة، وآخرها فاء بعد الواو والألف ـ قرية من قرى نيسابور، تفقه على أبي إبراهيم الضرير ثم على

ينقل عنه أنه كان يقول: «التحقيق للخوافي، والحدْسيات للغزالي، والبيان للكيا»(١).

والفترة التي عاش فيها الغزالي في نيسابور كانت من أخصب فترات حياته العلمية، قال الزبيدي: «ثم قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين، حتى برع في المذهب والخلاف والجدل والأصلين والمنطق والحكمة والفلسفة، وأحكم كل ذلك، وفهم كلام أرباب العلوم، وتصدى للرد على مبطليهم وإبطال دعاويهم، وصنف في كل فن من الفنون كتباً أحسن تأليفها، وأجاد وضعها وترصيفها»(٢) اهـ.

والذي يبدو أن كلام الزبيدي فيه تعميم وإطلاق لا يتمشى مع الواقع. والواقع أن دراسته للفلسفة واطلاعه على علوم الفلاسفة، والرد عليها، لم يكن ذلك إلا في بغداد، هذا ظاهر كلامه في المنقذ من الضلال حيث يقول: «ثم إني ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة.. فشمرت على ساق الجد في تحصيل ذلك العلم من

إمام الحرمين الجويني، ولي قضاء طوس ثم صرف عنه، وكان قد درَّس في حياة الإمام، وكان أسداً لا يصطلى له بنار، قادراً على قهر الخصوم، ومن هذا قال إمام الحرمين: الخوافي نار تحرق. قال معاصروه: رزق من السعد في المناظرة كما رزق الغزالي من السعد في المصنفات، وكان ديناً ورعاً ناسكاً، لم تعرف له هناة. راجع ترجمته في: طبقات الشافعية لابن السبكي ٦٣/٦، طبقات الشافعية للأسنوي ٤٨٠/١، شذرات الذهب ٤١٠/٣، اللباب ٤٦٨/١، وفيات الأعيان ٩٦/١.

١ـ راجع طبقات السبكي ٢٠٢/٦.

٢ـ إتحاف السادة ٧/١.

الكتب، بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ، وأقبلت على ذلك في وقت فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية، وأنا ممنون بالتدريس والإفادة لثلاثمائة نفر من الطلبة ببغداد»(١).

وقد يؤيد عدم خوضه في الفلسفة، ما ذكره الذهبي من أنه في نيسابور: «برع في الفقه، ومهر في الكلام والجدل» ولم يذكر غير ذلك(٢).

وعلى كل حال، فإنه استمر في نيسابور مقيماً مع إمام الحرمين، وإمام الحرمين مظهر التبجح به.

وهل ألف في أصول الفقه - وهو ميداننا - وهو في نيسابور، وقت حياة الجويني؟ هذا ما يثبته ابن السبكي حيث قال: «والمنخول، وقد صنفه في حياة أستاذه» اهـ.

غير أن هذا يشكل عليه: أن الغزالي يذكر في بعض الأحيان إمام الحرمين في كتاب المنخول، ثم يترحم عليه - ومعلوم أن هذا يدل على أنه وضعه بعد وفاة الإمام(٣).

إلا أن هذا الإشكال يمكن دفعه، بأن يقال: هذا من وضع النساخ عندما كانوا ينسخونه بعد وفاة إمام الحرمين، أو عندما كان الغزالي يمليه على الناس بعد وفاة الجويني. والله أعلم.

١ـ المنقذ من الضلال ص٣٦.

٢ـ سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٣.

٣ـ راجع المقدمة الدراسية لكتاب المنخول، بتحقيق محمد حسن هيتو.

وكم قضى الغزالي من الزمان في نيسابور بين يدي إمام الحرمين: (إذا سألنا التاريخ عن مدة إقامة الغزالي في نيسابور لم نظفر منه بجواب، لأنه لم يحدد لنا مبدأ المقام، وإن حدد نهايته)(١).

لكن، يبدو أن المدة لم تكن قصيرة، بل ربما وصلت إلى عشر سنين، حيث المعروف عن الغزالي: أن بداية خوضه ونظره في علوم الآخرين وتعمقه فيها كان لما قدم نيسابور، وهناك تلقى من العلوم ما جعله ينظر فيها، فهو يقول: «ولم أزل في عنفوان شبابي، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين، إلى الآن، وقد ناف السن على الخمسين، أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمراته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور»(٢).

ثم وجدناه وقد خرج من نيسابور وعمره ثمان وعشرون عاماً، فقرب لنا أن مدة إقامته هناك تقارب عشر سنين. على فرض أنه جاء إلى نيسابور وهو ابن ثمانية عشر عاماً - ولم يبلغ العشرين -

وهكذا انتهت مرحلة من أساسات مراحل حياة أبي حامد.

فخرج من نيسابور بعد وفاة إمام الحرمين، سنة ٤٨٧هـ.

١ـ الحقيقة في نظر الغزالي ص٢١.

٢ـ المنقذ من الضلال ص٢٤.

إلى المعسكر(١):

اتجه الغزالي بعد خروجه من نيسابور إلى المعسكر. وهناك كان نظام الملك(٢)، يلتقي حوله العلماء من كل حدب وصوب، يتناظرون، ويتدارسون، وكل يدلي بدلوه.

هكذا يصور بعض المؤرخين حال المعسكر من الناحية العلمية، والتي شارك فيها الغزالي بأوفر نصيب، «إن الغزالي قصد المعسكر ليظهر على خصومه، وينال أوسمة العلم والشرف، فإن نظام

١ـ منطقة خاصة بالإمارة، بالقرب من نيسابور، حيث كان يقيم نظام الملك الوزير، ويسميه الذهبي: "المخيم السلطاني". وفي ذلك يقول: "ثم سار أبو حامد إلى المخيم السلطاني، فأقبل عليه نظام الملك، وسر بوجوده" راجع سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٣، وبلدان الخلافة الشرقية ص٤٢٥.

٢ـ الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، أبو علي، الملقب بقوام الدين، ونظام الملك، وزير حازم عال الهمة، أصله من نواحي طوس، وتأدب بآداب العرب، وسمع الحديث الكثير، واشتغل بالأعمال السلطانية، فاتصل بالسلطان ألب أرسلان ـ وهو الذي كان الحاكم الفعلي للدولة العباسية في ذلك الزمان ـ فاستوزره فأحسن التدبير وبقي في خدمته عشر سنين، ولما مات ألب ارسلان خلفه ابنه ملك شاه. فصار الأمر كله لنظام الملك، وأقام على هذا عشر سنين، وكان محباً للخير، عاملاً به، سامعاً للنصيحة، مقدراً للعلماء، أقام المدارس في كثير من البلاد، من أشهرها نظامية بغداد، ونظامية نيسابور. ولد سنة ٤٠٨هـ، وقتل على يد ديلمي باطني على مقربة من نهاوند، ودفن في أصبهان سنة ٤٨٥هـ. راجع ترجمته في: وفيات الأعيان ٢/١٢٨، سير أعلام النبلاء ١٩/٩٤، الأعلام ٢/٢١٩، الكامل لابن الأثير ٨/١٦١، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) لمحمد خضري ص٤٢٨.

الملك كان أكبر رجل في الامبراطورية وقد أسس مدارس في مدن مختلفة لتشجيع العلم»(١).

واختار نظام الملك الإمام الغزالي ليكون مدرساً في نظامية بغداد.

إلى بغداد:

حمل الغزالي متاعه وانطلق إلى بغداد، حيث دار الخلافة، فجاءها وباشر إلقاء الدروس، وذلك في جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وكان إذ ذاك قد قارب الثلاثين، فأعجب به أهل العراق، وارتفعت منزلته عندهم، فدرس ونشر العلم، وكان يرضي الطلبة، ويلقي الدروس على نحو ثلاثمائة نفر من أكابرهم أو يزيدون، وأفتى، وصنف، وصار عظيم الجاه، عالي المرتبة، مسموع الكلمة، مشهور الاسم، تضرب به الأمثال، وتشد إليه الرحال.

وفي بغداد أكب على دراسة الفلسفة، فدرس كتب ابن سينا(٢)

١ـ الحقيقة في نظر الغزالي ـ نقلاً عن زويمر في كتابه حياة الغزالي ـ ص٣٠.

٢ـ الحسين بن عبد الله بن سينا، أبو علي، شرف الملك، الفيلسوف الرئيس، ألف في الطب والمنطق والفلسفة، ولد سنة ٣٧٠هـ في قرية من قرى بخارى، تقلد الوزارة في همذان، ثم تركها إلى أصفهان، وهناك ألف أكثر كتبه.. يقول ابن القيم: "كان ابن سينا ـ كما أخبر عن نفسه ـ هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم، من القرامطة الباطنيين" وقال ابن تيمية: "تكلم ابن سينا في أشياء من الإلهيات والنبوات والمعاد والشرائع،

والفارابي(١) دراسة عميقة - كما سبق الإشارة إلى ذلك -.

وعلى إثر ذلك كتب «مقاصد الفلاسفة» ثم صنف بعد ذلك «تهافت الفلاسفة» ليبطل مذهبهم، وليتضح للناس ما هم عليه من باطل.

ويذكر المؤرخون - هنا -: أن الناس كانوا لذلك أحوج ما يكونون، فبين زيف هذه الثقافة الوافدة، والتي أخذت بألباب كثير من الناس ففتنوا بها، فكان صنيع الغزالي بتوفيق من الله - تعالى

لم يتكلم بها سلفه، ولا وصلت إليها عقولهم، ولا بلغتها علومهم، فإنه استفادها من المسلمين، وإن كان إنما يأخذ عن الملاحدة المنتسبين إلى المسلمين، كالإسماعيلية". وأشهر كتبه "القانون" في الطب، بقي مرجعاً عند علماء الفرنج ستة قرون، وله "الشفاء" وهو من الكتب التي قرأها الغزالي، حتى قال بعضهم: "الغزالي أمرضه الشفاء" وغير ذلك من الكتب المطبوعة والمخطوطة.. إلا أن الغزالي في كتاب من آخر كتبه وهو "المنقذ من الضلال" يقول ـ عن الفلاسفة ـ: فوجب تكفيرهم، وتكفير متبعيهم من المتفلسفة الإسلاميين، كابن سينا والفارابي، وغيرهم، توفي سنة ٤٢٨هـ. راجع ترجمة ابن سينا في: وفيات الأعيان ١٥٧/٢، الرد على المنتطقيين ص١٤١ـ ١٤٤، الأعلام ٢٦١/٢.

١ـ محمد بن محمد بن طَرْخان بن أوزلغ، أبو نصر، ويعرف بالمعلم الثاني، لأنه شرح مؤلفات "أرسطو" المعلم الأول عند الفلاسفة. والفارابي أكبر الفلاسفة المنتسبين للإسلام، ولد في "فاراب" على نهر جيحون. وانتقل إلى بغداد، ونشأ فيها، وألف بها أكثر كتبه ورحل إلى مصر والشام، واتصل بسيف الدولة الحمداني. له كتب متعددة منها "الفصوص"، و "آراء المدينة الفاضلة" كان مولده سنة ٢٦٠هـ، وتوفي سنة ٣٣٩هـ. راجع ترجمته في: وفيات الأعيان ١٥٣/٥، الأعلام ٢٤٢/٧.

-، فعرى القوم وأبان عوارهم، ورد الناس إلى معتقدهم وإيمانهم رداً جميلاً.

كما أنه قام بالرد على الباطنية، وأظهر فضائحهم في كتابه المشهور «فضائح الباطنية» فعرف الناس من هم، وما هم عليه من باطل ومخالفة للدين، وبعد عن المنهج القويم.

هكذا كان الغزالي في بغداد، علم من الأعلام، وعالم من العلماء الأفذاذ، يشار إليه بالبنان، فاحتل المرتبة العليا.

ولكن، هل تدوم الدنيا على حال.. لا شك أن هذا من المحال إذا، ما الذي حدث لهذا الإمام.. لقد عزم على الرحيل إلى دمشق.. لماذا؟

هذا ما سنتركه له يبينه ببيانه، وبما صاغه بيده في كتابه «المنقذ من الضلال».

إلى دمشق:

يقول الغزالي: «كان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا، بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله - تعالى -، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق.

ثم لاحظت أحوالي، فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت

بي من الجوانب.

ولاحظت أعمالي، وأحسنها التدريس والتعليم، فإذا أنا مقبل على علوم غير مهمة، ولا نافعة في طريق الآخرة.

ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه، وانتشار الصيت.

فتيقنت أني على شفا جرف هار، وأني قد أشفيت على النار، إن لم اشتغل بتلافي الأحوال.

فلم أزل أتفكر فيه مدة، وأنا بعد على مقام الاختيار، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحل العزم يوماً، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه الأخرى، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، إلا ويحمل عليها جند الهوى حملة، فتفترها عشية.

فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادى الإيمان ينادي الرحيل الرحيل، فلم يبق من العمر إلا قليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل، فإن لم تستعد - الآن - للآخرة فمتى تستعد، وإن لم تقطع - الآن - هذه العلائق، فمتى تقطع.

فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار ثم يعود الشيطان، ويقول: هذه حال عارضة، إياك أن تطاوعها، فإنها سريعة الزوال، فإن أذعنت لها، وتركت هذا الجاه العريض، والشأن

المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص، والأمن المسلّم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التفتت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة.

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة، قريباً من ستة أشهر، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.

وفي هذا الشهر، جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطراب، إذ أقفل الله على لساني، حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً، تطييباً لقلوب المختلفين إليّ، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة، ولا أستطيعها البتة، حتى أورثت هذه العقلة في لساني حزناً في القلب، بطلت معه قوة الهضم، ومراءة الطعام والشراب، فكان لا ينساغ لي ثريد، ولا تنهضم لي لقمة، وتعدى إلى ضعف القوى، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج. وقالوا: هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج، إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم.

ثم لما أحسست بعجزي، وسقط - بالكلية - اختياري، التجأت إلى الله - تعالى -، التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب.

وأظهرت عزم الخروج إلى مكة، وأنا أدبر في نفسي سفر الشام، حذراً أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي في المقام بالشام، فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم ألا

أعاودها أبداً.

واستهدفت لأئمة العراق كافة، إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينياً، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين، وكان ذلك مبلغهم من العلم.

ثم ارتبك الناس في الاستنباطات، وظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة، وأما من قرب من الولاة - وكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي، والانكباب علي وإعراضي عنهم، وعن الالتفات إلى قولهم - فيقولون: هذا أمر سماوي، وليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة العلم.

ففارقت بغداد، وفرقت ما كان معي من المال، ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال، ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح، لكونه وقفاً على المسلمين، فلم أر في العالم مالاً يأخذه العالم لعياله أصلح منه.

ثم دخلت الشام، وأقمت به قريباً من سنتين، لا شغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله - تعالى - كما كنت حصلته من علم الصوفية.

وكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسي.

إلى بيت المقدس:

يقول الغزالي: «ثم رحلت إلى بيت المقدس، أدخل كل يوم الصخرة، وأغلق بابها على نفسي».

إلى الحجاز:

قال الغزالي: «ثم تحركت في داعية فريضة الحج، والاستمداد من بركات مكة والمدينة، وزيارة رسول الله ﷺ بعد الفراغ من زيارة الخليل - صلوات الله عليه -، فسرت إلى الحجاز[1] -.

إلى طوس:

قال الغزالي: «ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه، فآثرت العزلة به - أيضاً - حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر..

وكانت حوادث الزمان، ومهمات العيال، وضرورات المعاش[2] تغير في وجه المراد وصفوة الخلوة، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة، لكني لا أقطع طمعي فيها، فتدفعني عنها العوائق وأعود إليها، فدمت على ذلك عشر سنين» اهـ.

وبذلك يكون الإمام الغزالي قد قضى من عمره عشر سنين

١ـ المنقذ من الضلال من ص٦٣ـ ٦٧.

٢ـ يذكر بعض المؤرخين: أن الغزالي كان يتعيش من النسخ. راجع البداية والنهاية ١٧٣/١٢.

متنقلاً بين الشام وبيت المقدس والحجاز.

ويذكر بعض المؤرخين أنه قصد في تلك الفترة مصر، وأقام بالأسكندرية مدة، ثم عاد إلى الشام، وأخذ في تصنيف «إحياء علوم الدين»، والكتب المختصرة، مثل «الأصول الأربعين» و «جواهر القرآن»(١).

وفي طريقه إلى بلده طوس، عرج على بغداد، ولكنه لم يتصل بأحد من السلاطين والأمراء، فقد أخذ على نفسه عهداً، حيث قال: «لما وقفت على تربة الخليل - عليه السلام - في سنة (٤٨٩هـ) نذرت ثلاثة: أن لا أقبل من أي سلطان أي مال، وأن لا أذهب إلى سلام أي سلطان، وأن لا أناظر أحداً».

وهناك في بغداد، حدث بكتاب الإحياء.

وبعد ذلك عاد إلى «طوس»، فهو الذي يردد قول الشاعر:

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا، فيها فحنوا لذالكا

إلى نيسابور - مرة أخرى -:

ثم إن الوزير فخر الملك(٢) بن نظام الملك حضر إليه، وألح

١- مفتاح السعادة ٣٣٥/٢.

٢- علي بن الحسين بن علي بن إسحاق، أبو المظفر، كان أكبر أولاد نظام الملك، وكان وزيراً للسلطان بركيارق سنة ٤٨٨، ثم وزيراً لصاحب نيسابور سنجربن ملكشاه. راجع الكامل لابن الأثير ٣٣٧/٨، الأعلام ٨٢/٥.

عليه أن يذهب إلى نيسابور ليدرس في نظاميتها، فأجاب إلى ذلك.

يقول الغزالي - بعد أن تكلم عن انصراف كثير من الناس عن الشرع -: «فلما رأيت أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بهذه الأسباب، ورأيت نفسي لازمة مجتهدة مُلِبَّة بكشف هذه الشبهة، حتى كان فضح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء، لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم - أعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء - انقدح في نفسي أن ذلك متعين في الوقت محتوم، فماذا تغنيك الخلوة والعزلة، وقد عم الداء، ومرض الأطباء، وأشرف الخلق على الهلاك.

ثم قلت في نفسي، متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة، ومصادمة هذه الظلمة، والزمان زمان الفترة، والدور دور الباطل. ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق لعاداك أهل الزمان في جمعهم، وأنّى تقاومهم، فكيف تعايشهم!، ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد، وسلطان متدين قاهر.

فترخصت بيني وبين الله - تعالى - بالاستمرار على العزلة، وتعللاً بالعجز عن إظهار الحق بالحجة.

فقدر الله - تعالى - أن حرك داعية سلطان الوقت في نفسه، لا بتحريك من خارج، فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى نيسابور، لتدارك هذه الفتنة، وبلغ الإلزام حداً كاد ينتهي لو أصررت على الخلاف إلى حد الوحشة.

فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضعف، فلا ينتهي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة، وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق، ولم ترخص نفسك لعسر مقاساة الخلق والله - تعالى يقول: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ ويقول عز وجل لرسوله - وهو أعز خلقه -: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾.

فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة، والخروج من الزاوية، وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين، كثيرة متواترة، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد، قدرها الله - سبحانه - على رأس هذه المائة، وقد وعد الله - سبحانه - بإحياء دينه على رأس كل مائة.

فاستحكم الرجاء، وغلب حسن الظن، بسبب هذه الشهادات، ويسر الله الحركة إلى نيسابور، للقيام بهذا المهم، في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة»(١).

ومما قاله: «وأنا أعلم أني وإن رجعت إلى نشر العلم، فما رجعت، فإن الرجوع عود إلى ما كان، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه، وأدعو إليه بقولي وعملي، وكان ذلك

١ـ المنقذ من الضلال ص٨٠ـ ٨١.

قصدي ونيتي.

وأما الآن، فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه، ويعرف به سقوط رتبة الجاه، هذا هو - الآن - نيتي وقصدي، وأمنيتي، يعلم الله ذلك مني.

وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري، ولست أدري أأصل إلى مرادي، أم أخترم دون غرضي؟.

ولكني، أومن إيمان يقين ومشاهدة، أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأني لم أتحرك، لكنه حركني، وأني لم أعمل، لكنه استعملني.

فأسأله أن يصلحني - أولا - ثم يصلح بي، ثم يهدي بي، وأن يريني الحق حقاً، ويرزقني اتباعه، ويريني الباطل باطلا، ويرزقني اجتنابه»(١).

يقول عبد الغافر الفارسي: سألناه عن كيفية رغبته في الخروج من بيته، والرجوع إلى ما دعي إليه من أمر نيسابور، فقال - معتذراً عنه -: ما كنت أجوز في ديني أن أقف عن الدعوة، ومنفعة الطالبين بالإفادة وقد حق عليَّ أن أبوح بالحق وأنطق به، وأدعو

١ـ المنقذ من الضلال ص٨٢.

إليه(١).

العودة الأخيرة إلى طوس:

بعد أن درس الغزالي بنيسابور مدة يسيرة، كما يقول السبكي - رجع إلى مدينة طوس، واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء، ومكاناً لإقامة الصوفية.

ووزع أوقاته على وظائف، من ختم القرآن، ومجالسة أرباب القلوب، والتدريس لطلبة العلم، وإدامة الصلاة والصيام وسائر العبادات.

وكانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى ﷺ ومجالسة أهله، ومطالعة الصحيحين «البخاري» و «مسلم» اللذين هما حجة الإسلام، ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام يستفرغه في تحصيله»(٢).

١ـ طبقات ابن السبكي ٢٠٩/٦. وعبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر الفارسي أبو الحسن، من علماء العربية والتاريخ والحديث، فارسي الأصل، من أهل نيسابور، ارتحل إلى خوارزم وغزنة والهند، وتوفي بنيسابور. من كتبه "المفهم لشرح غريب مسلم" و "السياق" في تاريخ نيسابور. كان سبط القُشيري صاحب الرسالة، وجدته فاطمة بنت أبي علي الدقاق، ولازم إمام الحرمين أربع سنين، يأخذ عنه الفقه وعلم الخلاف. (٤٥١ـ ٥٢٩هـ). راجع ترجمته في: طبقات الشافعية للأسنوي ٢٧٥/٢، وفيات الأعيان ٢٢٥/٣، الأعلام ١٥٧/٤.

٢ـ ابن السبكي ٢١٠/٦.

تعليقاتي وخواطري حول رحلات الغزالي:

بعد أن سردت رحلات الإمام الغزالي لطلب العلم والتعليم كما رواها المؤرخون لحياته - وما أكثرهم -، أعود لأتوقف أمام هذه الحياة الحافلة بالمهمات، ولأقتنص العبرة والموعظة، من حياة رجل كان ملء السمع والبصر.. ملء الحياة العلمية في عصره بمصنفاته وأفكاره التي بثها فيها، وبدروسه التي كان يلقيها، ويحضرها المئات من أصحاب العمائم.

وقد رأيت أن أحصر ملاحظاتي في النقاط التالية:

أولا: إقامة الغزالي وأخيه في مدرسة لتلقي العلوم الشرعية، واعتمادهم في معاشهم على ما ينفق عليهما فيها، يثير في نفسي أمنية، أن يوجد مثل هذا في زماننا هذا، فيقبل الطلاب على تعلم العلوم الشرعية، ويتفرغوا لها، ويقضوا وقتاً طويلاً من أجل ذلك.

فالمدارس في هذا العصر لا تروي ظمأ العطشان، ولا تشبع جائعاً - أقصد الجوع الحسي والمعنوي على حد سواء -.

ولو وجد مثل هذه المشاريع، وتفرغ الطلاب للعلم، فهم لا يكادون يخرجون من المدارس إلا ويعودون إليها، حيث مقامهم بها لاستطعنا - بإذن الله - أن نخرج للأمة علماء كبار.. وأئمة عظماء، كما كان سلفنا الصالح..

إنها أمنية، أرجو الله - تعالى - أن يحققها.

ثانياً: إن الرحلة في طلب العلم دأب كثير من علماء الأمة، إذ تغيير البيئة، والتفرغ لطلب العلم، والبعد عن المشاغل، سبب لتحصيل العلوم والتوثق منها.. فله أثر كبير في بناء الشخصية العلمية.

وربما يقال: إن الفكرة الأولى - وهي بناء المدارس التي يقيم فيها الطلاب - تساعد على إمكان الترحال وطلب العلم، حيث يجد الراغب مكاناً يأوي إليه.

ثالثاً: المحاسبة الدائمة للنفس، ووزنها بميزان الشرع، والنظر في مآلها، من أوجب الواجبات، «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا».

وهذا ما حدث للإمام الغزالي، حيث وجد نفسه طالباً للجاه والمال والتقدم على الأقران، فعطفها وردها، وترك الجاه والمال والمنصب الرفيع، ليقينه أن ذلك لن ينفعه في الآخرة.

بل إن ترك أمور الدنيا بعد أن تسعى إليه سعياً حثيثاً، والارتقاء في طلب رضى الله - تعالى - سبب لفلاح الإنسان في الدنيا والآخرة.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «وفي هذا التمرد على ما

تهيأ له من جاه ومجد، سر عبقريته، وسر خلوده من بين الأقران والأعيان، ولذلك سمي «حجة الإسلام».

إنه مثال رائع في تاريخ العلم والعقيدة، يندر نظائره في كل زمان ومكان»(١).

ولو أن كل واحد نظر إلى نفسه، وراقبها، وصارحها، وقاسها على سيرة سيد المرسلين وإمام المتقين نبينا وسيدنا محمد - عليه أفضل الصلاة والسلام - وسيرة صحابته الكرام، لحصَّل الخير الكثير، ولوجه حياته الوجه الصحيح، ولفاز بخير الدنيا والآخرة.

ولكن، هذا لا يعني أن يترك الإنسان عمله ومعاشه وينصرف إلى العبادة بالكلية، ويبتعد عن تعليم الناس والدعوة إلى الله - تعالى -

فقد كان رسول الله ﷺ أتقى الناس وأعبدهم، وأخشاهم لله لكنه كان قائد الأمة، ومجيش الجيوش، وكان يقوم وينام، ويصوم ويفطر، ويتزوج النساء، فمن رغب عن سنته، فليس منه.

ولا يشك أحد أن لكثرة العبادة والذكر لله - سبحانه وتعالى - بالطريق المشروع، الوارد في الكتاب والسنة، ومنهج الصحابة والتابعين الكرام - أثر بالغ في حياة النفس، وانشراح الصدر، والقرب من الخالق سبحانه وتعالى.

والإمام الغزالي عندما ترك التدريس، واتجه إلى العبادة من

١ـ سلسلة رجال الفكر والدعوة (حجة الإسلام الغزالي) ص١٨٤.

صلاة وصوم وذكر دائم، ودام على ذلك عشر سنين، رجع إلى معاودة التدريس والإفادة، كما نقل ذلك عنه الشيخ عبد الغافر الفارسي، حيث قال الغزالي له «ما كنت أجوز في ديني أن أقف عن الدعوة، ومنفعة الطالبين».

وربما يكون له عذر في تركه التدريس في فترة من فترات حياته، لأن الرجل بلغ مبلغاً كبيراً من المكانة العالية، والجاه والمال، فما كان يستطيع أن يخرج من ذلك إلا بقوة نفس، قد لا يتحملها كثيرون.

ووصل إلى درجة كبيرة من حب الزعامة والتقدم على الأقران، والمباهاة، ما كان يكفرها - في نظره - إلا التجرد الكامل عن كل أحوال الدنيا، والزهد فيها وفي ملاذها ونعمها.

فالله - تعالى - أعلم بحاله التي كان عليها، ونحن ننظر في حاله بقدر ما يفيدنا، من التوجيه إلى البعد عن طلب الجاه والمال بعلوم الشريعة، ووجوب إخلاص النية لله سبحانه وتعالى، فإن النبي ﷺ يقول: «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يرح رائحة الجنة»(١).

١ـ جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١/١٩٠.

فتجربة الغزالي الصوفية - إن صح التعبير - ليس لنا منها إلا ما يوافق الكتاب والسنة، أما ما خرج عن ذلك، فرجل اجتهد فاخطأ، فهو مأجور معذور.

قال الذهبي: «ما زال العلماء يختلفون، ويتكلم العالم في العالم باجتهاده، وكل منهم معذور مأجور، ومن عاند أو فرق الإجماع، فهو مأزور، وإلى الله ترجع الأمور»(١).

رابعاً: مما يلفت نظري في رحلات الغزالي، وبالذات في رحلته ومقامه في بغداد، أن الرجل في مؤلفاته كان يمارس الواقعية بكل أبعادها، فأبحاثه ودراساته كانت شاملة للمدارس الفلسفية، سواء كانت مدرسة الطبيعيين أو الإلهيين أو الدهريين، حيث كان الجو العام في بغداد والحياة العامة تموج بآراء الفلاسفة، وتعتبرها قمة المعرفة والعلم الذي لا يخوض فيه إلا أرباب الذكاء والفطنة، والنظرة إلى أن غيره من العلوم إنما هي علوم العامة والطبقة التي تتمسك بالماضي ولا تعرف غيره.

فكان صنيع الغزالي متمشياً مع الواقع المعاصر الذي

١ـ كلام الذهبي هذا في نقله كلام القاضي عياض، وأنه قال: والشيخ أبو حامد ذو الأنباء الشنيعة، والتصانيف العظيمة، غلا في التصوف، وتجرد لنصرة مذهبهم، وصار داعية في ذلك، وألف فيه تواليفه المشهورة، أخذ عليه فيه مواضع، وساءت به ظنون أمة، والله أعلم بسره" راجع سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٧.

يعيشه، فكتب عن الفلسفة، ليبين للناس خطأها وخطرها.

وهذا الذي يجب أن يكون واجب كل مسلم، في كل عصر وفي كل مصر، لا يغادر ما يحتاج الناس إليه إلى ما لا يحتاجون إليه، بل إنما يتطرق إلى قضاياهم المعاصرة، ليفيدهم، ويدعوهم إلى الله - تعالى - عن هذا الطريق.

فينظر الداعية إلى الله، المعلم الناس الخير، إلى ما يفيدهم وينفعهم، ويقربهم إلى الله - تعالى - ويبعدهم عن الشيطان وأعوانه.

أما أن يشغل الناس بأمور عفى عليها الدهر، وكثر حولها الكلام، أو بقيت خاضعة للنظر والاجتهاد، ولكل رأي ومجال، فلا أراه مما ينبغي، فتضيع الساعات سدى.

خامساً : عندما كان الغزالي يرفل في نعمة الجاه والمال، واستيقظ بعد النوم، نذر أن لا يأخذ من سلطان مالاً؛ لأنه أدرك أن المال ظل زائل، وأن التعلق به وحبه ليس فيه خير.. ولذلك هجره، وابتعد عن مواطنه، واكتفى بما يقيم نفسه وأهله.

وهذا دفعني إلى أن أقول: إن الجري وراء المال والتكثر منه، والتنعم به، لا يكون - أبداً - دأب الرجال الكبار العظماء، ولنا في رسول الله ﷺ قدوة، فما كان حريصاً على جمع المال، بل ثبت أنه - عليه الصلاة والسلام - لو كان له مثل أحد ذهباً لأنفقه في سبيل الله.

وفي ذلك يقول أحد الشعراء:

وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه، فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته إن الضرورة لا تعدو على العصم

فحري بكل طالب علم أن يوجه همه إلى علمه، وأن يقضي وقته في التفكير كيف يدعو إلى الله - تعالى -، بل وكيف ينفق المال الذي يرزقه الله به في سبيل الدعوة إليه - سبحانه وتعالى -.

ولا يشغل نفسه بمقدار ما سيحصل من مال، فرزقه سيأتيه لا محالة، فإن الله - تعالى - يرزق من يشاء بغير حساب.

سادساً: نذر الغزالي أن لا يناظر أحداً.. لأنه يعلم أن المناظرة والجدال في العلم يفسده، بل يثير الأحقاد والضغائن وربما - وهذا هو الغالب - يبتغي كل واحد من المناظرين أن يهزم خصمه، من أجل أن يظهر عليه، وقد تستخدم لذلك وسائل غير مشروعة.

ولذلك يقول النبي ﷺ: «من ترك المراء - وهو مبطل - بني له بيت في ربض الجنة، ومن ترك المراء - وهو محق - بني له بيت في وسطها، ومن حسن خلقه، بني له بيت في أعلاها» رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي، وقال: حديث حسن.

(٤)
مكانته العلمية

كل من ترجم للغزالي، يعترف بأن الرجل كان عالماً كبيراً، حبراً لا يوجد له مثال، وأنه جامع لأشتات العلوم، فلم يترك فناً إلا كان له فيه نصيب.

كان الغزالي دائرة معارف في ذلك العصر.

فإذا كتب في الفلسفة، وهي آفة ذلك العصر، برز فيها، ورد الفرية منها، كل ذلك بعد اطلاع واسع على كتبها ومؤلفيها.

ولذلك يقول السبكي: «جاء - يعني الغزالي - والناس إلى رد فرية الفلاسفة أحوج من الظلماء لمصابيح السماء، وأفقر من الجدباء إلى قطرات الماء، فلم يزل يناضل عن الدين الحنيفي بجلاد مقاله، ويحمي حوزة الدين، ولا يلطخ بدم المعتدين حد نصاله، حتى أصبح الدين وثيق العرى، وانكشفت غياهب الشبهات، وما كانت إلا حديثاً يفترى»(١).

وكان الغزالي قد ألف كتاب «مقاصد الفلاسفة» ثم بين رأيه في مقاصدهم، حيث ألف كتاب «تهافت الفلاسفة»، فكفرهم في بعض آرائهم، وبدعهم في بعضها، ووافقهم في أخرى.

ولكن، بعض الباحثين يرى أن الغزالي تأثر بآراء الفلاسفة،

١ـ طبقات الشافعية الكبرى ١٩٣/٦.

وراح يدور حول أفكارهم في كثير من كتبه، بل ويقول ببعض ما انتقد عليهم فيه، كقولهم بقدم العالم، وأن الجزاء الأخروي إنما يكون للأرواح لا للأجساد، وغيرها.

ويستدل بعض من يرى هذا الرأي، بقول القاضي ابن العربي - تلميذ الغزالي -: «شيخنا أبو حامد بلَعَ الفلاسفة، وأراد أن يتقيأهم، فما استطاع»[1].

وإذا كان الأمر كما يقال، إلا أن من كتبه الأخيرة، والتي تعبر عن مذهبه واعتقاده، كتاب «المنقذ من الضلال» يبين فيه الغزالي تكفيره للفلاسفة في قولهم بقدم العالم، والعذاب الروحي، وعدم علم الله بالجزئيات.

ويبدو لي أن ما يرى من آراء للغزالي في هذا الباب، إنما هي أوهام جاءت له في حال استغراقه في التصوف والخلوة، عندما اتجه إلى هذا الطريق، فسطره في كتابه، ثم رجع عنه، ولكن كتبه طار بها الركبان، فمثله لا يمكن أن تحصر كتبه في مكان.

وأعجبني تحليل الدكتور سليمان دنيا لحال الغزالي في هذا الموضوع، حيث قال: «ولما كان منهجهم - يعني الصوفية - يقضي بإهمال الحواس، والجلوس للخلوة في مكان مظلم، والقسوة الشديدة على الجسم بحرمانه من الغذاء والراحة، ومن شأن هذا

١ـ سير أعلام النبلاء، ٣٢٧/١٩، وراجع أيضاً كتاب الحقيقة في نظر الغزالي لسليمان دنيا، وكتاب "مقارنة بين ابن تيمية والغزالي" لمحمد رشاد سالم.

الصنيع أن يحدث في النفس خيالات وتشويشات.

ولما كان الغزالي قد أكثر من القراءة في كتب الفلاسفة وكان للفلاسفة محاولات عقلية، تجعل آراءهم أنضر وأبهج من آراء غيرهم.

فربما أبرقت هذه الآراء أمام مرآة قلبه، فظنها فاضت عليه من خارج، وإنما نبعت من الخزانة، ولم تفض من الخارج»(١).

وكتب في علم الكلام ما شاء الله - تعالى - له أن يكتب، وكان أشعرياً في مذهبه العقدي، وكان يظن أنه بذلك يذب عن العقيدة الصحيحة، فهو مأجور معذور، ويقول وهو يتكلم عن طائفة من أهل الكلام: «قام طائفة منهم بما ندبهم الله - تعالى - إليه، فأحسنوا الذب عن السنة، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة، والتغيير في وجه ما أحدث من البدعة»(٢).

وعلى كل حال.. فلا أقول في هذا الموضع، إلا ما قلته، وسأقوله - بإذن الله - تعالى -: إن أمر الاختلاف في علم الكلام أمر شائك عسر، ومن هذا الاختلاف اختلاف شنيع، ومنه ما هو أقل شناعة، والمذهب العدل الذي يتشوف إلى معدن النبوة هو مذهب المقرين بما جاء في كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله ﷺ بدون تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تشبيه.

١ـ الحقيقة في نظر الغزالي ص٣٩٢.

٢ـ الحقيقة في نظر الغزالي ص٣٩٢.

ولا نخوض فيما لم يتكلم فيه خير هذه الأمة، ونكتفي في عقيدتنا بما كان يكتفي به صحابة رسول الله ﷺ الذين تعلموا منه، وبه تأسوا.

وللغزالي مكانة كبيرة عند فقهاء المذهب الشافعي، حتى قال عنه تلميذه الإمام محمد بن يحيى[1]: الغزالي هو الشافعي الثاني[2].

وقال أحد الشعراء:

هذب المذهب حبر عجل الله خلاصة
ببسيط ووسيط ووجيز وخلاصة

أما بالنسبة لعلم أصول الفقه، فإن رسوخ قدم أبي حامد في هذا العلم مما لا يشك فيه أحد.

فلا تجد أحداً من كتاب هذا العلم إلا ويذكر الغزالي في ثنايا كتابه، موضحاً رأيه، مستشهداً بكلامه وأدلته وتحليله للمسألة.

بل إن كتابه المستصفى - كما سيأتي - يعتبر أحد أركان هذا العلم.

١ـ محمد بن يحيى بن أحمد النيسابوري، أبو أسعد، تفقه على الغزالي وصار أكبر تلاميذه، وشرح كتاب "الوسيط للغزالي" وسماه "المحيط" وكان إماماً بارعاً في الفقه والزهد والورع، كان مولده سنة ٤٧٦هـ بـ "طريثيث" وهي من أعمال نيسابور. قتل لما خرج العسكر على سنجر السلجوقي في نيسابور سنة ٥٤٨هـ. راجع ترجمته في طبقات ابن هداية ص٢٠٥، وطبقات الأسنوي ٥٥٩/٢.

٢ـ طبقات السبكي ٢٠٢/٦.

وكتابه «شفاء الغليل» لا يوجد له مثيل، وهو كتاب متخصص في جانب واحد، هو مسالك التعليل وبيان الشبه والمخيل.. وهذا الجانب من أهم مباحث علم الأصول، إن لم يكن أهمها.

وهو بهذا الصنيع يعطينا دلالة واضحة على سبق علماء المسلمين في الدراسات المتخصصة، التي تأخذ موضوعاً معيناً، وتشبعه بحثاً وتحليلاً، وتأتي عليه من كل جوانبه.

وكذلك كتابه المنخول، على رغم صغر حجمه، إلا أنه يمثل مرحلة واضحة من حياة التلميذ المتفوق، عندما كان بجوار إمام الحرمين.. وفيه وفاء بنشره آراء أستاذه وصاحب الفضل عليه.

كما أن كتابه «تهذيب الأصول» - ولم يعثر عليه إلى الآن - يعتبر موسوعة في علم الأصول، ولا يؤلف إنسان موسوعة في علم إلا ويكون قد أحاط به من كل جوانبه.

ثم احتل المكانة الفكرية العظمى في مجال التصوف، فكان ربانه وقائده، وعليه فيه الاعتماد، بل إنه كساه في كثير من مباحثه بطابع الشرع.

ونحن - هنا - عندما نتكلم عن الغزالي الصوفي، الذي رأى أن طريق التصوف والاستغراق في العبادة والذكر، والبعد عن الدنيا وملذاتها، هو طريق المعرفة والوصول إلى الحقيقة - لا يسعنا إلا ما وسع علماء هذه الأمة من قبولهم لما هو الحق في ذلك، ورد ما

جانب الغزالي الصواب فيه.

وقد كتب كثيرون في هذا الباب، وأشاروا إلى أن كتاب «إحياء علوم الدين» - والذي حوى كثيراً من الآراء الصوفية لأبي حامد - فيه من المخالفة لمقتضيات الأدلة الشرعية ما فيه، إلا أنه حوى من الخير الكثير.

يقول العلامة ابن تيمية: «والإحياء فيه فوائد كثيرة، لكن فيه مواد مذمومة، وفيه من أغاليط الصوفية وترهاتهم، وفيه مع ذلك من كلام الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة، ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة ما هو أكثر مما يرد منه، فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه»[1].

وللشيخ يوسف القرضاوي تحليل لموقف الغزالي من التصوف، وكأنه يعتذر له، ولماذا لم ينقده وهو الناقد البصير، الذي لا يمر بشيء إلا وينظر فيه، يقول: «كان دخول الغزالي إلى التصوف دخول المحب العاشق، لا دخول الفاحص الناقد، فلم ينظر إلى علوم الصوفية وتراثهم بعين النقد التي نظر بها إلى علوم الفلاسفة والمتكلمين والباطنية، بل بعين الرضا والحب، والحب يعمي ويصم».

ثم يقول الشيخ القرضاوي: «ومع هذا لا ينكر منصف دارس

١ـ مجموع الفتاوى ١٠/٥٥١ـ ٥٥٢.

للغزالي وكتبه - ولإحيائه خاصة - أنه لم يقبل التصوف بعجره وبجره، بل رفض في حزم تصوف أهل الحلول والاتحاد كالحلاج وأشباهه»(١).

وأحب أن أختم هذا الموضوع - وهو مكانة الغزالي العلمية بقول شيخ الإسلام ابن تيمية - عندما نقل كلام ابن الصلاح «أبو حامد كثر القول فيه ومنه، فأما هذه الكتب - يعني المخالفة للحق - فلا يلتفت إليها، وأما الرجل فيسكت عنه ويفوض أمره إلى الله» - قال ابن تيمية: «ومقصوده أن لا يذكر بسوء، لأن عفو الله عن الناسي والمخطىء، وتوبة المذنب تأتي على كل ذنب، وذلك من أقرب الأشياء إلى هذا وأمثاله، ولأن مغفرة الله بالحسنات منه ومن غيره وتكفيره الذنوب بالمصائب تأتي على محقق الذنوب، فلا يقدم الإنسان على انتفاء ذلك في حق معين إلا ببصيرة، لا سيما مع كثرة الإحسان، والعلم الصحيح، والعمل الصالح والقصد الحسن»(٢).

بل قال ابن تيمية - رحمه الله -: «أبو حامد الغزالي مع فرط ذكائه وتألهه ومعرفته بالكلام والفلسفة وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوف ينتهي في هذه المسائل - يعني مسائل التأويل ونفي الصفات - إلى الوقف والحيرة، ويحيل في آخر أمره على

١ـ الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ص١٣١ـ ١٣٣.

٢ـ الفتاوى ٤/٦٦.

طريق أهل الكشف، وإن كان بعد ذلك رجع إلى طريقة أهل الحديث، وصنف «إلجام العوام عن علم الكلام»(١).

وقال الحافظ الذهبي: «الغزالي إمام كبير، وما من شرط العالم أن لا يخطىء»(٢).

وقال: «رحم الله الإمام أبا حامد، فأين مثله في علومه وفضائله، ولكن لا ندعي عصمته من الغلط والخطأ».

١ــ الفتاوى ٤/٧٢.

٢ــ سير أعلام النبلاء ١٩/٣٣٩.

(٥)
مؤلفاته

لأبي حامد الغزالي مؤلفات كثيرة في كل العلوم الشرعية، فقد أوتي بسطة في التصنيف.

وقد خصص بعض الباحثين مؤلفات خاصة بمؤلفاته، ومن أجمع من كتب عن ذلك الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه «مؤلفات الغزالي» تعرض فيها لمؤلفات الغزالي المتحقق من نسبتها إليه، ومؤلفاته المشكوك في نسبتها، وذكر أماكن وجودها إن كانت مخطوطة، أو إن كانت مطبوعة بين أين طبعت، ومن طبعها.

فكل من أراد أن يطلع على مؤلفاته فليرجع إلى ذلك الكتاب.

وسأكتفي - هنا - بالكلام عن مؤلفاته الأصولية:

أولا: تهذيب الأصول

يعتبر هذا الكتاب موسوعة في أصول الفقه، حيث ورد ذكره في عدد من المواضع في «المستصفى».

ومن ذلك ما قاله في المقدمة لكتاب المستصفى: «اقترح علي طائفة من محصلي علم الفقه تصنيفاً في أصول الفقه، أصرف العناية فيه إلى التلفيق بين الترتيب والتحقيق، وإلى التوسط بين الإخلال والإملال، على وجه يقع في الفهم دون كتاب «تهذيب الأصول» لميله إلى الاستقصاء والاستكثار، وفوق كتاب المنخول، لميله إلى الإيجاز

والاختصار».

ومن ذلك: عندما أورد قول الله - تعالى -: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾ وقال: أقوى الأدلة الظاهرة على حجية الإجماع هذه الآية، وهو ما تمسك به الشافعي، وقد أطنبنا في كتاب «تهذيب الأصول» في توجيه الأسئلة على الآية ودفعها.

وبما أوردناه من كلام الغزالي، يتبين أن كتاب «تهذيب الأصول» هو كتاب كبير في علم أصول الفقه.

وحتى الآن لم يعثر على هذا الكتاب.. أين هو؟.. الله أعلم.

ثانياً: أساس القياس

وقد ورد ذكر هذا الكتاب في «المستصفى».

ومن ذلك: عندما تكلم الغزالي في «المستصفى» عن صورة البرهان - في المقدمات المنطقية - وأورد صورة القياس الفقهي، حيث المقدمات ظنية، كقول الفقهاء: «النبيذ مسكر، فكان حراماً، قياساً على الخمر - قال: وقد ذكرنا في كتاب «أساس القياس» أن تسمية هذا قياساً تجوز، فإن حاصله راجع إلى إدراج خصوص تحت عموم.

ومن ذلك: حين تكلم الغزالي عن الأسماء اللغوية، وهل تثبت قياساً، قال: «وقد أطنبنا في شرح هذه المسألة في كتاب أساس

القياس.

وقد ورد ذكر هذا الكتاب للغزالي في الطبقات العلية برقم ٣٣ - نقلاً عن كتاب مؤلفات الغزالي - لعبد الرحمن بدوي. ولا يعرف له وجود - الآن -.

ثالثاً: المنخول

وهو كتاب مطبوع متداول.

وقد سبق الإشارة إليه، وأن الغزالي ألفه في حياة أستاذه الإمام الجويني، حتى قيل: إن أبا المعالي لما رأى «المنخول» قال للغزالي: «دفنتني وأنا حي، فهلا صبرت الآن، كتابك غطى على كتابي»[1].

وقد حُقِّقَ هذا الكتاب، حققه الشيخ محمد حسن هيتو ونشره فيما يقارب من خمسمائة وخمسين صفحة.

ولم يبين الغزالي منهجه فيه في بداية الكتاب، ولكن بعد أن فرغ من الكتاب قال: «هذا تمام القول في الكتاب، وهو تمام المنخول من تعليق الأصول، بعد حذف الفضول، وتحقيق كل مسألة بماهية العقول، مع الإقلاع عن التطويل، والتزام ما فيه شفاء الغليل، والاقتصار على ما ذكره إمام الحرمين - رحمه الله - في تعاليقه، من غير تبديل وتزييد في المعنى وتعليل، سوى تكلف في تهذيب كل

١ـ سير أعلام النبلاء ٣٣٥/١٩.

كتاب بتقسيم فصول، وتبويب أبواب؛ روماً لتسهيل المطالعة عند مسيس الحاجة إلى المراجعة».

وبهذا يتبين أن عمل الغزالي في «المنخول» كان محصوراً، قاصراً على ترديد آراء إمام الحرمين وتعليقاته وتحقيقاته.

وهذا فيه دليل على بر هذا التلميذ بأستاذه، فما كان لينكر فضله وأثره عليه في كتابه هذا.

رابعاً: شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل

وهو كتاب مطبوع محقق. قام بتحقيقه ونال بذلك درجة الدكتوراه الشيخ حمد الكبيسي.

وهذا الكتاب مخصص لمسألة معينة، هي مسالك العلة، وبيان قياس الشبه، والأوصاف المخيلة.

ولا شك أن هذا الكتاب له أهمية كبرى، حيث تشعر أن الغزالي قد جعل فيه خلاصة تفكيره القياسي.

إنه كتاب رائع، يشترى بوزنه ذهباً.

خامساً: كتاب المستصفى

وسأفرد عنه الكلام في القسم الثاني من الدراسة.

(٦)

وفاة الغزالي

قال أبو الفرج بن الجوزي في «كتاب الثبات عند الممات» قال أحمد - أخو الإمام الغزالي -: لما كان يوم الاثنين وقت الصبح، توضأ أخي أبو حامد وصلى، وقال عليَّ بالكفن، فأخذه، وقبله، ووضعه على عينيه، وقال: سمعاً وطاعة للدخول على الملك، ثم مد رجليه، واستقبل القبلة، ومات قبل الإسفار، قدّس الله روحه.

وكان ذلك في رابع عشر جمادى الآخرة، سنة خمس وخمسمائة.

رحم الله أبا حامد الغزالي، وأسكنه فسيح جناته.

(١)
أهمية كتاب المستصفى

يعتبر كتاب «المستصفى» لأبي حامد الغزالي من أهم كتب علم أصول الفقه، بل يعتبر ركناً من أركان التأليف في هذا الفن.

ولذلك نجد كل الذين يكتبون عن أصول المتكلمين - الشافعية - يستعينون بكلام ابن خلدون في مقدمته، حيث قال: «إن من أحسن ما كتب فيه المتكلمون: كتاب «البرهان» لإمام الحرمين، و «المستصفى» للغزالي، وهما من الأشاعرة، وكتاب «العهد»(١)

١ـ هكذا ورد اسم كتاب القاضي عبد الجبار في تاريخ ابن خلدون. فهل ما أورده ابن خلدون صحيح حيث أورده بلفظ "العهد" أم أن الصحيح هو كتاب "العمد" كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين كالشيخ عبد العظيم الديب في بحثه عن الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لوفاته ص٣٤٩، وكما أورده الشيخ محمد حسن هيتو في مقدمة المنخول. لم يورد الديب دليلا على ذلك بل قال: "نلاحظ أن ابن خلدون يسمي كتاب القاضي عبد الجبار "العهد" والصواب أنه "العمد" وقد يكون هذا وهماً من ابن خلدون، فإن للقاضي عبد الجبار كتاباً يسمى "العهد" أيضاً، وقد يكون تحريفاً، لما بين اللفظين من قرب، ثم فشا هذا التحريف وتداولته الاقلام". وكذلك الشيخ محمد حسين هيتو، لم يتعرض لتحقيق اسم الكتاب، بل أورده باسم "العمد". والذي أراه: أنه ليس هناك دليل على خطأ كلام ابن خلدون، خصوصاً وأن أبا الحسين البصري في بداية كتاب المعتمد يقول: "ثم دعاني إلى تأليف هذا الكتاب في أصول الفقه بعد شرحي كتاب "العهد"، واستقصاء القول فيه، أني سلكت في "الشرح" مسلك الكتاب في

لعبد الجبار، و «المعتمد» لأبي الحسين البصري، وهما من المعتزلة، وكانت الأربعة قواعد هذا الفن وأركانه»[1].

كما تنبع أهمية «المستصفى» من صنيع الرازي والآمدي، حيث اعتمدا في كتابيهما «المحصول» و «الإحكام في أصول الأحكام» على الكتب الأربعة السالفة الذكر، ومنها «المستصفى».

ولا شك أننا نلاحظ كثرة النقول عنه في كتب الأصول بشكل عام.. حيث مثل رافداً من روافد مؤلفات الأصول قاطبة.

ترتيب أبوابه، وتكرار كثير من مسائله... فطال الكتاب ذلك، وبذكر ألفاظ "العهد" فأحببت أن أؤلف كتاباً مرتبة أبوابه... إلخ". وكذلك اعتراف الجميع بأن للقاضي كتاباً اسمه "العهد" فلماذا لا يكون هو الذي يمثل أحد أركان علم الأصول. وقد ذكر اسم كتاب العهد في شرح الأصول الخمسة ص١٨٤ باسم "مجموع العهد". فليكن كتاب "العمد" كتاب آخر في أصول الفقه، وهو كذلك حيث ورد ذكره في المغني ٢٠/٢٥٤، وشرح العيون، والمنية والأمل، وروضات الجنان. هكذا نقل الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان في الفكر الأصولي ص١٩٧ من هذه الكتب. ولكن هل يمكن أن يقال: ليس للقاضي عبد الجبار كتابين في أصول الفقه متقاربين في الاسم، وإنما هو كتاب واحد. هذا الكلام والاحتمال يحتاج إلى دليل، ولا دليل، ثم ما هو الاسم الصحيح. هل هو "العمد" أم "العهد". فالأولى، بل الواجب، البقاء على ما نقل حتى يتبين بدليل واضح... والله أعلم. والذي يمكن أن ينبه إليه، هو خطأ ابن خلدون في جعل "المعتمد" شرحاً للعهد، بل شرح "العهد" لم نطلع عليه، والمعتمد بديل لشرح "العهد" كما صرح بذلك أبو الحسين البصري في مقدمة كتاب "المعتمد".

١ـ مقدمة ابن خلدون ص٤٥٥.

كما أن أهميته تظهر لكونه آخر كتب الغزالي الأصولية، حيث يشير فيه إلى جميع كتبه الأصولية، ويحيل عليها، ففي هذا الكتاب الرأي والمنهج الأصولي الأخير لعالم من علماء الأصول الكبار، ولا شك أن لذلك قيمة علمية كبرى.

وأهمية المستصفى تتأكد من الترتيب العجيب الذي رتب به صاحبه كتابه، ولذلك أشار أبو حامد إلى ذلك في بداية كتابه، وكل مطالع لكتب الأصول يدرك الإبداع الذي جاء به في «المستصفى» وجعل لعلم الأصول هيكلاً ضخماً فخماً، استفاد منه كل من جاء بعده.

كذلك نلاحظ أهميته من حرية الفكر الموجودة فيه. فلم يكن الغزالي ذلك المقلد الذي يتبع ما كان عليه الآباء والأجداد، إلا بعد الفحص والفقه والتأمل.

كيف لا، وهو القائل: «وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني، من أول أمري وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله، وضعتا في جبلتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحطت عني رابطة التقليد، وانكسرت عليَّ العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا.

(٢)
أهمية تحقيق كتاب «المستصفى»

تظهر أهمية تحقيق كتاب «المستصفى» تحقيقاً علمياً عندما ننظر إلى طباعته التي تمت قبل ما يقرب من مائة عام.

فقد طبع المستصفى لأول مرة عام ١٣٢٤هـ في مجلدين وعلى هامشه «فواتح الرحموت» بالمطبعة الأميرية ببولاق - مصر.

وهذه الطبعة ليس فيها عناصر التبويب والتنسيق التي يفترض أن تكون في نشر الكتب، فقد اتصلت فيها الأبواب والفصول، بشكل يجعل تميزها عن بعضها يحتاج إلى عناء وتعب.

كما يوجد في هذه الطبعة من السقط والأخطاء ما يؤدي في بعض الأحيان إلى تغيير المعنى الذي أراده المؤلف، وسوف يتبين ذلك عندما نتعرض لبعض الأمثلة.

كذلك لم توثق نسبة الأقوال إلى أصحابها، ولم تخرج الأحاديث النبوية، بحيث يطلع على درجتها القاريء.

ثم طبع «المستصفى» طبعة أخرى عام ١٣٥٦هـ جزءان في مجلد واحد. ط: المطبعة التجارية.

ويبدو أنه منقول من طبعة بولاق السابقة، فهو مطابق لها، إلا أنه طبع منفرداً.

وأمام هذا الواقع الذي عليه كتاب عظيم مثل كتاب الإمام

أبي حامد الغزالي، كان لابد أن يخرج بغير هذا الذي هو عليه.

وكان هذا همي منذ مدة طويلة، لكن حال دون ذلك أسباب، وبقيت صلتي به لم تنقطع، والأمل يراودني - دائماً - أن أكمل هذا العمل.

وأقول: قال الله - تعالى -: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله، إن الله كان عليماً حكيماً﴾.

كنت أحب أن أرى كتاب «المستصفى» في ثوب قشيب مكتوباً بحرف واضح، مفصل الأبواب والفصول والمسائل، مفهرساً فهرسة كاملة، يستطيع كل مريد علم أن يصل إلى ما يريد منه.

وقد حصلت على نسختين مخطوطتين مصورتين في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية - مصورة من مكتبة أحمد الثالث - واكتفيت بهما مع المطبوعة في المطبعة الأميرية ببولاق.

وإنما اكتفيت بهما لسببين:

الأول: وضوح الخط في كل منهما، واكتمالهما، وقرب عهدهما من المؤلف.

الثاني: أن النسخة المطبوعة اعْتُمِدَ فيها على أكثر من نسخة مخطوطة - وهذا يظهر من هامش النسخة - وإن كان نادراً -.

والمخطوطتان اللتان اعتمدت عليهما في التحقيق هما:

الأولى: مخطوطة في مكتبة أحمد الثالث، برقم ١٢٥٦ أصول وتاريخ نسخها سنة ٥٩٦هـ في ٢٥٠ ورقة.

وخطها جيد وواضح.

وقد كتبها دانيال بن أبي بكر بن الحسن الكازروني.

الثانية: مخطوطة في مكتبة أحمد الثالث، برقم ١٢٥٨ أصول في ٣٠١ ورقة وبتاريخ ٦١٧هـ.

ولم يعرف كاتبها، وإنما يوجد عليها تملك باسم «صالح بن عمر البلقيني».

وخطها جيد وواضح.

وقد رمزت لهذه النسخة في التحقيق بـ «ص» نسبة إلى مالكها.

ورمزت للنسخة الأولى بـ «د» نسبة إلى كاتبها.

واتبعت في التحقيق طريقة إثبات النص الذي أراه صحيحاً، ولم اعتمد على إثبات نسخة معينة.

وقد يكون النص صحيحاً في كل النسخ وإن اختلفت العبارات، فأختار العبارة التي تتفق عليها نسختان، وأثبت العبارة الأخرى في الهامش.

وإن رأيت أن إحدى النسخ - وإن انفردت - عبارتها أولى أثبتها في نص الكتاب.

وسرت في التحقيق على المنهج العلمي المعروف من تخريج للآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وتوثيق الآراء والمذاهب، وترجمة الأعلام الواردة في نص الكتاب، وتوسطت في ذلك، فعمدت

إلى عدم تطويل ممل وعدم تقصير مخل، فخير الأمور الوسط.

وهذه نماذج من الأخطاء التي تم تصحيحها بعد المقابلة بالنسخ المخطوطة مع المطبوعة.

أولا: في خطبة الكتاب، قال الغزالي: «ثم العلوم ثلاثة عقلي محض، لا يحث الشارع عليه، ولا يندب إليه، كالحساب والهندسة والنجوم، وأمثاله من العلوم، فهي بين ظنون كاذبة لا ثقة بها»

هذه العبارة بعد تصحيحها .. وقد كانت قبل ذلك - أعني في المطبوعة -: «لاثقة» بدل «لا ثقة بها».

ثانياً: قال الغزالي - في خطبة الكتاب -: «جمعت فيه بين الترتيب والتحقيق، الترتيب للحفظ، والتحقيق لفهم المعاني».

هذه هي العبارة الصحيحة بعد المقابلة، وقد كانت قبل المقابلة: «بين الترتيب والتحقيق لفهم المعاني» فسقطت عبارة «الترتيب للحفظ والتحقيق...» فنقص بذلك مراد المؤلف.

ثالثاً: قال الغزالي - عند كلامه عن تسمية ترتيب الاستدلال الفقهي بواسطة التعليل قياساً: إن تسمية هذا قياساً تجوز، فإن حاصله راجع إلى إدراج خصوص تحت عموم.

هذه هي العبارة الصحيحة، وقد كانت «ازدواج» بدلا عن «إدراج».

رابعاً: عندما تكلم الغزالي عن ما يقع في رتبة الحاجات

والتحسينات من المصالح، وهل يجوز الحكم بمجرده، وبدون الرجوع إلى أصل شرعي في اعتباره قال الغزالي: «لا يجوز الحكم بمجرده إن لم يعتضد بشهادة أصل، لأنه يجري مجرى وضع الشرع بالرأي، فهو كالاستحسان، فإن اعتضد بأصل، فذاك قياس».

هذه هي العبارة بعد تصحيحها، وكانت قبل ذلك «لا يجوز الحكم بمجرده، إن لم يعتضد بشهادة أصل، إلا أنه يجري مجرى وضع الضرورات، فلا بعد أن يؤدي إليه اجتهاد مجتهد، وإن لم يشهد له أصل معين».

ويتضح بأدنى نظر أن هناك تحريف في النسخة المطبوعة وقلب للمعنى.

(٣)

منهج الغزالي في «المستصفى»

أولا: يبين الغزالي في خطبة كتابه السبب الذي دعاه إلى تأليف كتاب «المستصفى» ويضمنه منهجه العام فيه.

قال الغزالي: «ثم ساقني قدر الله - تعالى - إلى معاودة التدريس والإفادة.

فاقترح علي طائفة من محصلي علم «الفقه» تصنيفاً في «أصول الفقه» أصرف فيه العناية إلى التلفيق بين الترتيب والتحقيق، وإلى التوسط بين الإخلال والإملال، على وجه يقع في الحجم دون كتاب «تهذيب الأصول» - لميله إلى الاستقصاء والاستكثار -، وفوق كتاب «المنخول» لميله إلى الإيجاز والاختصار.

فأجبتهم إلى ذلك، مستعيناً بالله، وجمعت فيه بين الترتيب والتحقيق، الترتيب للحفظ، والتحقيق لفهم المعاني، فلا مندوحة لأحدهما عن الثاني.

فصنفته وأتيت فيه بترتيب لطيف عجيب، يطلع الناظر - في أول وهلة - على جميع مقاصد هذا العلم، ويفيده الاحتواء على جميع مسارح النظر فيه».

وبهذا الكلام بين الغزالي منهجه العام في المستصفى. فهو

يرتبه بحيث يسهل على طالب العلم أن يحفظ عدد الأبواب والمسائل، فيكون ذلك ضابطاً له، لاستحضار موضوعات هذا العلم.

ولا شك أن ترتيب أي كتاب ترتيباً جيداً، يساعد على احتواء مسائل ذلك الكتاب.

ثم بعد ذلك، من أراد تحقيق المسائل، ومعرفة معانيها فليرجع إلى ما في الكتاب من تحليل وتوضيح لتلك المسائل.

ولذلك كان سلف هذه الأمة يهتمون بحفظ المتون، لتذكرهم بما تحتويه العلوم، وتضبط لهم معلوماتهم، وترتبها ترتيباً ذهنياً، ثم بعد ذلك يواصلون الشرح والتوضيح للمعاني.

فظهر بمنهج الغزالي - في المستصفى - محافظته على كل ما ينفع في العملية التعليمية، ويحافظ على العلوم التي حصلها الطالب.

ولا شك أن ذلك منهج علمي متألق، وطريقة تدريسية ناجحة.

يقول الغزالي: «فكل علم لا يستولى الطالب في ابتداء نظره على مجامعه ولا مبانيه، فلا مطمع له في الظفر بأسراره ومباغيه.

ويمكن أن نلقي نظرة على هذا الترتيب العجيب الذي صنعه الغزالي في كتابه:

فهو يقول: اعلم أن هذا العلم الملقب بأصول الفقه، قد رتبناه وجمعناه في هذا الكتاب، وبنيناه على مقدمة وأربعة أقطاب.

المقدمة له كالتوطئة والتمهيد، والأقطاب هي المشتملة على لباب المقصود ا هـ.

ويصوغ الغزالي هذا الترتيب بعبارة جميلة، وخيال متألق فيشبه الأحكام الشرعية بالثمار، والأدلة بالمثمر... وهكذا.

نسمعه، وهو يقول: اعلم أنك إذا فهمت أن نظر الأصولي في وجوه دلالة الأدلة السمعية على الأحكام الشرعية، لم يخف عليك: أن المقصود معرفته: كيفية اقتباس الأحكام من الأدلة، ثم في صفات المقتبس الذي له أن يقتبس الأحكام، فإن الأحكام ثمرات، وكل ثمرة فلها صفة وحقيقة في نفسها، ولها مثمر، ومستثمر، وطريق في الاستثمار.

والثمرة هي الأحكام، أعني الوجوب والندب، والكراهة، والإباحة، والحسن، والقبح، والقضاء، والصحة، والفساد، وغيرها.

والمثمر هي الأدلة، وهي ثلاثة: الكتاب، والسنة، والإجماع فقط.

وطرق الاستثمار هي وجوه دلالة الأدلة، وهي أربعة، إذ الأقوال إما أن تدل على الشيء بصيغتها ومنظومها، أو بفحواها ومفهومها، أو باقتضائها وضرورتها، أو بمعقولها ومعناها المستنبط منها.

والمستثمر هو المجتهد، ولابد من معرفة صفاته وشروطه وأحكامه.

أما تحقيقه في المسائل والغوص داخل المعاني التي يدور حولها الخلاف الحقيقي، والكشف عن أسباب الخلاف الرئيسة،

وكيفية تعلق المسألة بها . فلا شك أنه وفى بمنهجه وأساسه الذي من أجله وضع الكتاب.

ففي كل مسألة تراه يحقق الأقوال، ويناقشها ، ويبين الصحيح منها والسقيم.

ومما تلاحظه في ذلك استعماله لبعض العبارات التي تدل على سيره على المنهج التحقيقي، فنجده مثلا يقول: «وكشف الغطاء عندنا أن نقول»، «والمختار عندنا التفصيل»، «وهذا غير مرضي عندنا» ثم يبدأ في بيان ما يراه ، «وتحقيق القول فيه».

قال الغزالي: مسألة: إذا نسخ بعض العبادة أو شرطها أو سنة من سننها ، كما لو أسقطت ركعتان من أربع، أو أسقط شرط الطهارة .

فقد قال قائلون: هو نسخ لبعض العبادة ، لا لأصلها .

وقال قائلون: هو نسخ لأصل العبادة .

وقال قائلون: نسخ الشرط ليس نسخاً للأصل، أما نسخ البعض فهو نسخ للأصل.

ولم يسمحوا بتسمية الشرط بعضاً ، ومنهم من أطلق ذلك.

وكشف الغطاء عندنا أن نقول: إذا أوجب أربع ركعات ثم اقتصر على ركعتين، فقد نسخ أصل العبادة ، لأن حقيقة النسخ الرفع والتبديل.

ولقد كان حكم الأربع الوجوب، فنسخ وجوبها بالكلية، والركعتان عبادة أخرى، لا أنها بعض من الأربعة، إذ لو كانت بعضاً

لكان من صلى الصبح أربعاً فقد أتى بالواجب وزيادة، كما لو صلى بتسليمتين، وكما لو وجب عليه درهم فتصدق بدرهمين ا هـ.

والأمثلة على ذلك كثيرة، ولولا خوف التطويل لأوردت الكثير.

ثانياً: اهتم الغزالي بإيراد تعريفات لبعض مصطلحات غير متعلقة بأصول الفقه، ولكنه يراها مهمة، نورودها في تعريفات مصطلحات الأصول.

وهذا المنهج يعطينا دلالة واضحة على حرص الغزالي على إيصال المعلومات كاملة واضحة جلية.

وكذلك فعل بالنسبة للمقدمات المنطقية، حيث تكلم عن الحد والبرهان، لقناعته أن كل طالب علم لابد أن يحرص على ضبط تفكيره وعصمته عن الخطأ والزلل، وعلى وجوب تنبهه إلى كلام الآخرين، وما فيه من خطأ وصواب.

واعتقد أن هذا المنهج هو الصواب، حيث يصنع هذا العلم، وهو علم «أصول الفقه» المجتهد ويؤسسه، فكان لابد من هذه المقدمات التي يزن بها الكلام ويصححه.

فتأسيس البناء على قواعد متينة راسخة، كفيل بأن يجعل هذا البنيان شامخاً صامداً أمام كل التحديات وعوامل الإزالة.

يقول الغزالي: «وليست هذه المقدمة من جملة علم الأصول، ولا من مقدماته الخاصة به، بل هي مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط

بها، فلا ثقة له بعلومه - أصلا -».

والاهتمام بإيراد المقدمات والممهدات منهج سار عليه الغزالي في كتابه، فإذا كانت هناك مسألة من المسائل تحتاج إلى تمهيد وتقديم، أشار إلى ذلك، وبدأ في إيراد تلك المقدمة.

ثالثاً: لم يهتم الغزالي بنسبة الأقوال إلى أصحابها ولذلك نجده في كثير من الأحيان يستعمل كلمة «قال قوم» أو «قيل».

وصنيعه هذا لا يدل على عدم معرفته بأصحابها، بل هو - على التحقيق - يعرفهم، ولا يدل - أيضاً - على عدم اهتمامه بهم، بل يظهر أنه يتبع في ذلك منهجه العام الذي ينادي به دائماً في كتبه، وهو «لا تعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله».

كما يبدو لي أنه لا يحب أن يذكر صاحب الرأي، لأنه يرى أن ذكر صاحب الرأي الفاسد، وتبيين غلطه - وربما أدى ذلك إلى تجريحه - يرى الغزالي أن ذلك من باب الغيبة، وهو أمر محرم شرعاً، ولذلك اجتنبه، حيث ذكر هذا الرأي في كتاب «إحياء علوم الدين» عند كلامه عن الغيبة وحكمها.

يقول الغزالي: «البواعث على الغيبة كثيرة، ولكن يجمعها أحد عشر سبباً، ثمانية منها تطرد في حق العامة، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة».

ثم ذكر الغزالي - بعد ذكر الثمانية - الثلاثة، وقال:

«أولا: أن تنبعث من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر

والخطأ في الدين، فيقول: ما أعجب ما رأيت من فلان!، فإنه قد يكون به صادقاً، ويكون تعجبه من المنكر، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه، فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه، فصار به مغتاباً وآثماً من حيث لا يدري».

وقد لا يوافق بعض الناس على أن ذلك من الغيبة - أعني ذكر الرأي مع ذكر صاحبه، ثم إبطاله -، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه؛ ما الفائدة من ذكر اسم صاحب الرأي؟

إن كان هناك فائدة لا تحصل إلا بذكر الاسم، وعدم ذكره قد يؤدي إلى مفسدة، فلا شك أننا نتبع في ذلك الترجيح بين المصالح المتعارضة، ولا شك أن ذلك أمر فقهي، يجب أن نحرص عليه.

رابعاً: من منهج الغزالي عدم التعصب لرأي مذهب معين. فهو الشفعوي المعروف بدراسته وانتمائه لمذهب الشافعي، إلا أنه أصبح ذو شخصية علمية مستقلة.

ففي عدد من المسائل في كتابه هذا يختار خلاف مذهب الشافعي، بل وفي مسألة من أهم مسائل الأصول، وهي مسألة «هل النَّهي يقتضي الفساد».

قال الغزالي: «اختلفوا في أن النهي عن البيع والنكاح والتصرفات المفيدة للأحكام، هل يقتضي فسادها.

فذهب الجماهير إلى: أنه يقتضي فسادها.

وذهب قوم إلى: أنه إن كان نهياً عنه لعينه دل على الفساد

وإن كان لغيره، فلا.

والمختار: أنه لا يقتضي الفساد».

ثم يشرع في تحقيق المذهب الذي يراه.

ومن المعلوم أن الشافعي ممن يرى أن النهي يقتضي الفساد[1].

خامساً: حرص الغزالي على ذكر آراء القاضي الباقلاني، وهذا يعد مكسباً للباحثين، حيث يتطلعون إلى معرفة آراء الباقلاني، والذي يعد معلماً من معالم الطريق الأصولي عند المتكلمين.

فكتب القاضي لم يعثر عليها إلى الآن، وإن كان إمام الحرمين قد نقل آراء القاضي في كتابه «التلخيص» والذي حقق في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام -.

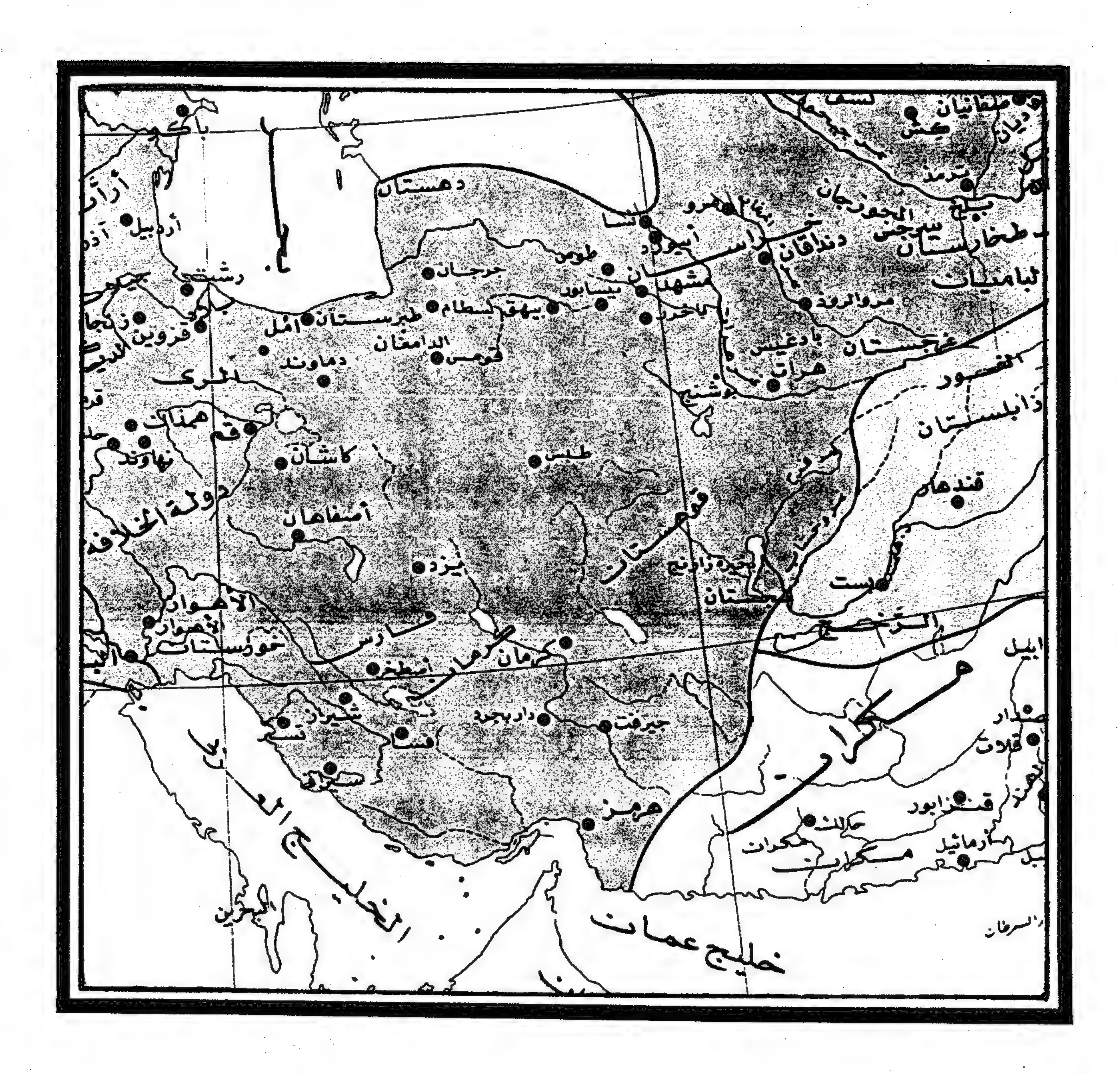
وقد كتب الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان دراسة لمنهج الغزالي وأسلوبه في المستصفى، ضمن كتابه «الفكر الأصولي»، فأشار إلى معالم المنهج عند الغزالي، وضرب لذلك الأمثلة، وهي دراسة نموذجية مستوعبة مؤصلة.

وكذلك تكلم عن منهج الغزالي الدكتور عبد العظيم الديب في بحثه الذي قدمه ضمن مجموعة بحوث في الذكرى المئوية التاسعة لوفاة الغزالي ص٣٥٢.

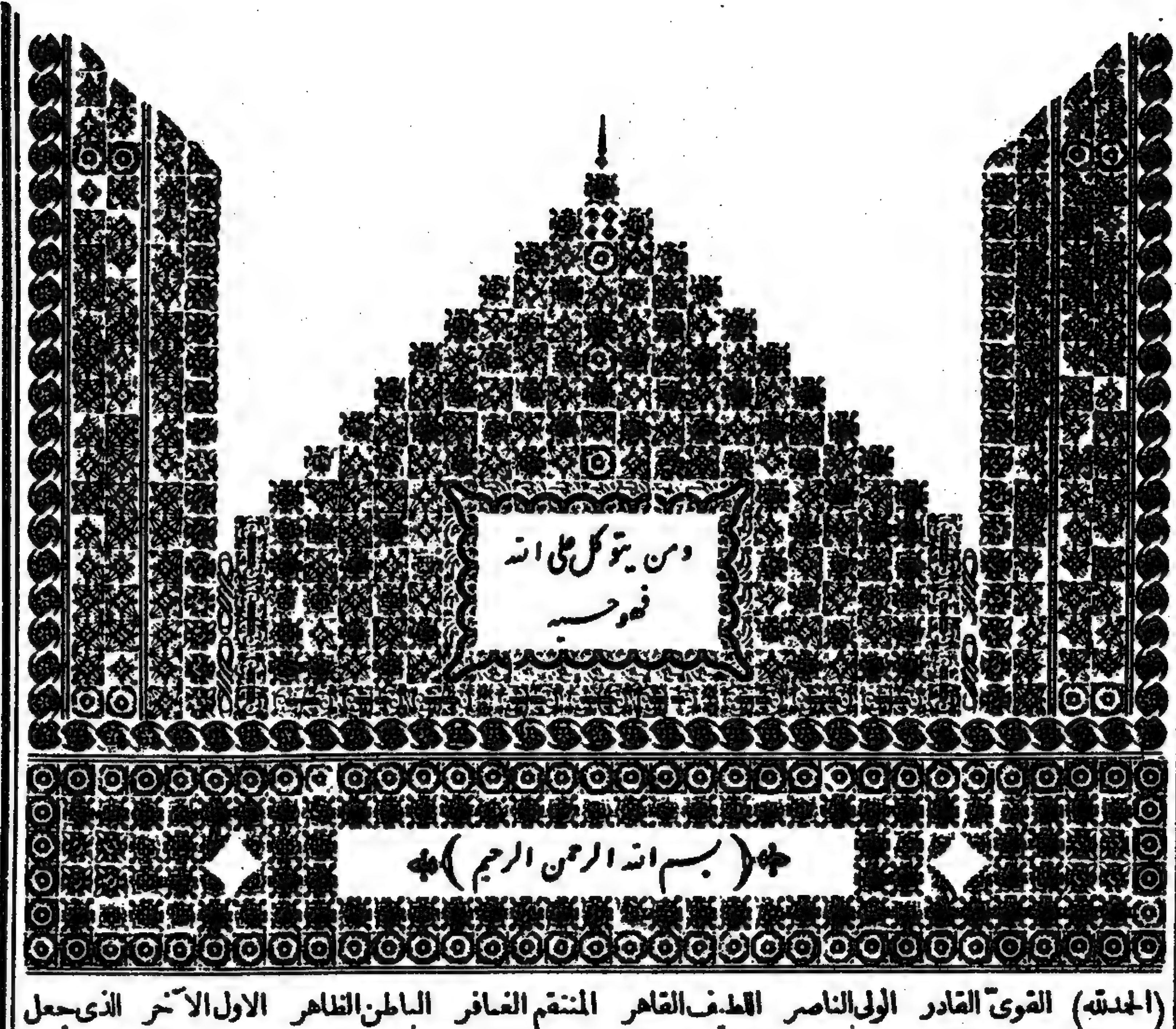
١ـ الرسالة ص٣٤٣ وما بعدها، والمنخول ص١٣٦ ويظهر فيه الغزالي بغير الرأي الذي في المستصفى.

وقد نبه الدكتور الديب إلى أن هناك دراسة قام بها الدكتور محمد سراج (أطروحة للدكتوراه) بكلية العلوم بالقاهرة في سنة ١٩٧٦م بعنوان «الفكر الأصولي عند الغزالي».

وقد دعاني ما كتبه الأساتذة الفضلاء عن منهج الغزالي إلى الاقتصار - هنا - على ما ذكرت، رغبة في عدم التكرار، وعدم التطويل في مقدمة تحقيق كتاب «المستصفى» حيث تطبع هذه المقدمة معه - إن شاء الله -.







(الحمد لله) القوى القادر الولى الناصر اللطيف القاهر المنتقم الغافر الباطن الظاهر الاول الآخر الذى جعل العقل أربح الكنوز والذخائر والعلم أربح المكاسب والمتاجر وأشرف المعالى والمفاخر وأكرم المحامد والمآثر وأحمد الموارد والمصادر فشرفت باثباته الاقلام والمحابر وتزينت بسماعه المحاريب والمنابر وتحلت برقومه الاوراق والدفاتر وتقدم بشرفه الاصاغر على الاكابر واستضاءت ببهائه الاسرار والضمائر وتنورت بأنواره القلوب والبصائر واستحقر فى ضيائه ضياء الشمس الباهر على الفلك الدائر واستصغر فى نوره الباطن ما ظهر من نور الاحداق والنواظر حتى تغلغل بضيائه فى أعماق المغمضات جنود الخواطر وان كلت عنها النواظر وكثفت عليها الحجب والسواتر والصلاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الانسان بعد أن لم يكن شيأ مذكورا وهداه الى ما تهيأ به صلاح معاشه ومعاده كما كان فى الكتاب مسطورا وأغرقنا فى بحار إفضاله وجوده وأنطق الموجودات بآيات وجوب وجوده لنستدل به على توحيد ذاته وجلالة صفاته ونؤمن به كما هو بأسمائه ونشكره على ما وهبنا من نعمائه ونحمده على ما أعطانا من آلائه ونثنى عليه الخير أعظم ثنائه ونشهد أن لا اله الا الله ونشهد أن محمدا عبده ورسوله بعثه الله تعالى هاديا وبشيرا ونذيرا وداعيا الخلق الى الرحمن بدرا منيرا ذلك النبى الذى خرق السبع السموات العلى ووصل الى مكان سوى وعلم هنالك علم اللوح والقلم وجاز مقاما لم يصل اليه لواحد من الانبياء قدم ودنا للحر به الاعلى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فرأى ما لا عين رأت ولا

على

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله القوي [illegible] الحمد لله [illegible]
الذي جعل العقل [illegible] والمخبر والمعاين [illegible]
وأكرم المحامد [illegible] وأنشد [illegible] وتقريت
بتباعد [illegible] واستجمعوا [illegible] بشرفوا [illegible]
واستحقت [illegible] القدس [illegible]
[illegible] المستحق [illegible]
[illegible] الغفلات [illegible]
علي الخلق [illegible] وعلى آله [illegible]
الناصر والحكم [illegible] المبعوث بشيرا [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
العاد والحاضر [illegible] أما بعد فقد [illegible]
[illegible]
علي [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

فكان يجري كلامه [illegible] أمثالها يسير إذ يشترك في الاستقلال
بها الحيوان [illegible] لأن قوة الحفظ [illegible] فيه مجال للعقل وأشرف العلوم
ما ازدوج فيه العقل والسمع واصطحب فيه الرأي والشرع وعلم الفقه وأصول الفقه
من هذا القبيل فإنه يأخذ من صفو العقل والشرع سواء السبيل فلا هو تصرف بمحض
العقول بحيث لا يتلقاه الشرع بالقبول ولا هو مبني على محض التقليد الذي لا يشهد له العقل
بالتأييد والتسديد ولأجل شرف علم الفقه وسببه وفر الله دواعي الخلق على طلبه
وكان العلماء به أرفع العلماء مكانا وأجلهم شأنا وأكثرهم أتباعا وأعوانا فتقاضاني
في عنفوان شبابي [illegible] اختصاص هذا العلم بفوائد الدين والدنيا وثواب الآخرة
والأولى أن أصرف إليه من مهلة العمر صدرا وأن أخص به من متنفس الحياة قدرا
فصنفت كتبا كثيرة في فروع الفقه وأصوله ثم أقبلت بعده على علم طريق الآخرة
ومعرفة أسرار الدين [illegible] فيه كتبا بسيطة ككتاب إحياء علوم
الدين ووجيزة ككتاب جواهر القرآن ووسيطة ككتاب كيمياء السعادة ثم
ساقني تقدير الله تعالى إلى معاودة التدريس والإفادة فاقترح علي طائفة من محصلي علم الفقه تصنيفا في أصول الفقه أصرف العناية فيه إلى التلفيق بين الترتيب والتحقيق وإلى
[illegible] من الإخلال والإملال على وجه يقع في الفهم دون كتاب تهذيب الأصول
لميله إلى الاستقصاء والاستكثار وفوق كتاب المنخول لميله إلى الإيجاز والاختصار
فأجبتهم إلى ذلك مستعينا بالله تعالى وجمعت فيه بين الترتيب والتحقيق لفهم
[illegible] المعاني [illegible] مطالعة [illegible] فيه بترتيب لطيف
[illegible] العلم [illegible]
[illegible]
[illegible] كتاب المستصفى من علم الأصول
[illegible] والتوفيق [illegible]
[illegible] أصول الفقه

بسم الله الرحمن الرحيم قال الشيخ الامام [illegible]

الحمد لله القوي القادر الولي الناصر اللطيف القاهر المنتقم الغافر الباطن الظاهر الاول
الاخر الذي جعل العقل ارجح الكنوز والذخائر والعلم اربح المكاسب والمتاجر واشرف المعالي
والمفاخر واكرم المحامد والماثر واحمد الموارد والمصادر فشرفت باثباته الاقلام والمحابر
وتزينت [illegible] المحاريب والمنابر وتحلت برقومه الاوراق والدفاتر وتقدم بشرفه
الاصاغر على الاكابر واستضاءت ببهائه الاسرار والضمائر وتنورت بانواره القلوب
والبصائر واستحقر في ضيائه ضيا الشمس الباهر على الفلك الدائر واستصغر في نوره الباطن
ما ظهر من نور الاحداق والنواظر حتى تغلغل بضيائه في اعماق الغوامض [illegible] خواطر
وان كلت عنها النواظر وكثفت عليها الحجب والستائر والصلوة على محمد رسوله ذي العنصر
الطاهر والمجد المتظاهر والشرف المتناصر والكرم المتقاطر المبعوث بشيرا للمؤمنين [illegible]
للكافرين وناسخا بشرعه كل شرع غابر ودين داثر المؤيد بالقران المجيد الذي لا يمله سامع
ولا اثر ولا يدرك كنه جزالته ناظم ولا ناثر ولا يحيط بوصف عجائبه وصف [illegible]
ولا ذكر ذاكر وكل بليغ دون فهم لطائف اسراره قاصر وعلى اله واصحابه وسلم كثيرا
كثيرا تنقطع دونها همم العاد الحاصر .. اما بعد فقد تناطق قاضي العقل
وهو الحاكم الذي لا يعزل ولا يبدل وشاهد الشرع وهو الشاهد المزكى المعدل بان الدنيا دار
غرور لا دار سرور ومطية عمل لا مطية كسل ومنزل عبور لا متنزه حبور ومحل تجارة
لا مسكن عمارة ومتجر بضاعتها الطاعة وربحها الفوز يوم تقوم الساعة والطاعة
طاعتان عمل وعلم والعلم انجحهما واربحهما فانه ايضا من العمل ولكنه عمل القلب الذي
هو اعز الاعضاء وسعي العقل الذي هو اشرف الاشياء لانه مركب الديانة وحامل الامانة
المعروضة على الارض والجبال والسموات السبع فاشفقن من حملها وابين ان [illegible]
ثم العلوم ثلاثة عقلي محض لا يحث الشرع عليه ولا يندب [illegible]

والنجوم وامثاله من العلوم فهي بين ظنون كاذبة لا ثقة بها وان بعض الظن اثم وبين علوم
صادقة لا منفعة لها ونعوذ بالله من علم لا ينفع وليست المنفعة في الشهوات الحاضرة
والنعم الفاخرة فانها فانية داثرة بل النفع ثواب دار الاخرة ونقلي محض كالاحاديث
والتفاسير والخطب في امثالها يسير اذ يستوي في الاستقلال بها الكبير والصغير لان
قوة الحفظ كافية في النقل وليس فيه مجال للعقل واشرف العلوم ما ازدوج فيه العقل والسمع
واصطحب فيه الراي والشرع وعلم الفقه واصول الفقه من هذا القبيل فانه ياخذ من صفو
العقل والشرع سواء السبيل فلا هو تصرف بمحض العقول بحيث لا يتلقاه الشرع بالقبول
ولا هو مبني على محض التقليد الذي لا يشهد له العقل بالتاييد والتسديد ولاجل شرف علم الفقه
وسببه وفر الله دواعي الخلق على طلبه وكان العلماء به ارفع العلماء مكانا واجلهم شانا واكثرهم
اتباعا واعوانا فتقاضاني في عنفوان شبابي اختصاص هذا العلم بفوائد الدين والدنيا وثواب الاخرة
والاولى ان اصرف اليه من مهلة العمر صدرا وان اخص به من متنفس الحياة قدرا فصنفت كتبا
كثيرة في فروع الفقه واصوله ثم اقبلت بعده على علم طريق الاخرة ومعرفة اسرار الدين الباطنة فصنفت
كتبا بسيطة ككتاب احياء علوم الدين ووجيزة ككتاب جواهر القران ووسيطة ككتاب
كيميا السعادة ثم ساقني تقدير الله تعالى الى معاودة التدريس والافادة فاقترح طائفة
من محصلي علم الفقه تصنيفا في اصول الفقه اصرف العناية فيه الى التلفيق بين الترتيب
والتحقيق والى التوسط بين الاخلال والاملال على وجه يقع في الحجم دون كتاب تهذيب
الاصول لميله الى الاستقصاء والاستكثار وفوق كتاب المنخول لميله الى الايجاز والاختصار
فاجبتهم الى ذلك مستعينا بالله وجمعت فيه بين الترتيب والتحقيق الترتيب لحفظ والتحقيق
لفهم المعاني ولا مندوحة لاحدهما عن الثاني فصنفته واتيت فيه بترتيب لطيف عجيب يطلع الناظر
في اول وهلة على جميع مقاصد العلم ويفيده الاحتواء على جميع مسارح النظر فيه وكل
علم لا يستولي الطالب في ابتداء نظره على مجامعه ومبانيه فلا مطمع له في الظفر باسراره

المستصفى

من علم الأصول

تصنيف

الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي

(٤٥٠ - ٥٠٥ هـ)

الجزء الأول

« المقدمات المنطقية - الأحكام »

دراسة وتحقيق

الدكتور حمزة بن زهير حافظ

أستاذ أصول الفقه المساعد

الجامعة الاسلامية - كلية الشريعة

المدينة المنورة

((وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني ، من أول أمري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله ، وضعتا في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت عليَّ العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا)) ،

أبو حامد الغزالي